تقـدمة

دعم قيام إمبراطورية المغول الإسلامية فى الهند مركز الإسلام كقوة حربية لها حسابها فى العالم فى القرن السادس عشر ، وكان لقيامها أعظم الأثر فى تمكين أصول الإسلام فى الهند وتعميق جذوره الأولى . وهو أمر يشهـــد به التراث الفكرى والفنى الهائل الذى خلفه أباطرة المغول العظام فى الهند أمثال همايون وأكبر وجهانجير وشاه جهان وأورنجزيب .

وتاريخ المغول فى الهند ، على الرغم من أنه يدخل فى عداد التاريخ الحديث، يعتبر امتدادا للتاريخ الإسلامى فى العصر الوسيط واستمرارا له ، كما أن آثار الحضارة المغولية فى الهند ، وهى حضارة تعتمد أساساً على تقاليـــد مغولية وفارسية وتركية تعتبر امتداداً لحضارة المغول فى العصر التيمورى ، وإن كانت قد اتسمت بوضوح شخصيتها وجدتها وأصالتها .

ولم يحظ تاريخ المغول فى الهند ـ على أهميته بالنسبة لتاريخ الشرق الإسلامى فى العصور الوسطى والحديثة ـ بما يستحقه من عناية الباحثين فى الأقطار العربية ، الذين لم يصل اهتمامهم إلى أبعد من بلدان الشرق الأدنى الإسلامية ، وكان هـذا من العوامل التى دفعتنى إلى الكتابة فى تاريخ هذه الدولة الإسلامية . فأصدرت فى سنة ١٩٥٧ بحثا عن الحركات الإصلاحية ومراكز الثقافة فى الشرق الإسلامى الحديث ، وأفردت للهند فصلا قائما بذاته . وقد حاولت بقدر ما وسعنى الجهد أن يكون هذا الكتاب بحثا شاملا مترابط العناصر ، لتاريخ المغول فى الهند ، كما حاولت أن أكشف النقاب عن كثير من خفايا هذا التاريخ ، وأمهد السبيل أمام المهتمين بتاريخ الشرق الإسلامى الإلمام بجوانبه الغامضة وأحسبنى قد وفقت فيما أنا بسبيله .

وقد مهدت للبحث بفصل تمهيدى ، لخصت فيه المسالك التى نفذ منها الإسلام إلى الهند منذ عصر الفتوحات العربية ، موضحا عوامل انتشار الإسلام فى الهند فى الحرب عن طريق الغزو والفتح ، وفى السلم عن طريق الدعوة الدينية السلمية ، حتى القرن السادس عشر الميلادى ، ثم بدأت البحث بقيام دولة المغول فى الهند على يدى ظهير الدين محمد بابر وولده ناصر الدين محمد همايون ، وأفردت لكل منهما فصلا تناولت فيه دوره بالنسبة للتاريخ السياسى والحضارى . ثم خصصت فصلا ثالثا لدراسة عصر شيرشاه وخلفائه . ثم خصصت الفصول الثلاثة الرابع والخامس والسادس لدراسة عصر شاه أكبر أعظم أباطرة المغول فى الهند . وفى الفصل السابع تحدثت عن حركة أحمد سرهندى أحد كبار مفكرى الهند الإسلامية ، وهى حركة تجديدية كان لها أثرها فى إصلاح المجتمع الإسلامى فى الهند . أما الفصل الثامن فقد تحدثت فيه عن عصر جهانجير بن أكبر ، وفى الفصل التاسع عن شاه جهان . واختتمت البحث بفصل عاشر تحدثت فيه عن عصر أورنجزيب ابن جيهان .

ولم أغفل مع ذلك الجانب الحضارى من تاريخ المغول ، فقد أوليته عناية خاصة ، وأشرت فى كل من عهود أباطرة المغول إلى آثارهم فى الحضارة .

أرجو أن أكون قد وفقت فيما أنا بسبيله ، والله الموفق ؟

الاسكندرية فى ١٥ أكتوبر ١٩٦٧

جمال الدين الشيال

المقـــدمة

(أ) العالم الإسلامى بين قوى ثلاث

(من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر)

(ب) دخول الإسلام الهند وانتشاره بها

(أ) العالم الاسلامى بين قوى ثلاث

من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر

شهد العالم الإسلامى فى القرن السادس عشر تغييرات أساسية ، ففى السنوات الأولى من هذا القرن اصطدمت قوى الدولة التركية العثمانية بقوى دولة المماليك، وعقدت ألوية النصر للدولة الأولى ، وورثت ملك المماليك فى الشام ومصر ، وقضت على الخلافة العباسية الصورية القائمة فى مصر ، وانتزع سلاطين العثمانيين منذ ذلك الحين لقب الخلافة ، وأصبحوا بهذا خلفاء للمسلمين بعد أن كانوا سلاطين على دولتهم التركية وحسب .

ثم امتد ملك الأتراك العثمانيين بعد هذا ، وفى هذا القرن أيضا ، حتى شمل بلاد العرب واليمن فى آسيا ، والجزائر وتونس وطرابلس فى أفريقيا ، ولم يبق خارجا عن ملك العثمانيين غير المغرب الأقصى .

وفى أوائل هذا القرن أيضا قامت دولتان إسلاميتان جديدتان فى القسم الشرقى من العالم الإسلامى :

الدولة الأولى : هى الدولة الصفوية الشيعية فى بلاد فارس ، ومؤسسها هو الشاه إسماعيل الصفوى (٩٠٦ هـ = ١٥٠٠ م) وقد ضم اليه العراق العربى وديار بكر ، وشمل ملكه بلاد فارس وخراسان جميعا ، وامتدت دولته من الخليج الفارسى إلى بحر الخزر واتخذ تبريز عاصمة له .

وقد قام نزاع آخر بين هذه الدولة ودولة الاتراك العثمانيين ، وانتصر السلطان سليم الأول فى موقعة شالدران (١٥١٤) ، ولكنه لم يكن إنتصاراً حاسما ، ولم يستطع العثمانيون القضاء على ملك الصفويين قضاء تاما كما فعلوا بدولة المماليك ، وكل ما نجحوا فيه هو ضم بلاد العراق العربى وظلت الدولة الصفوية قائمة إلى أواخر القرن التاسع عشر (٩٠٧ — ١٣١١ هـ = ١٥٠٢ — ١٨٩٣) .

أما الدولة الثانية : فهى دولة أباطرة المغول فى الهند ،ومؤسس هذه الدولة هو بابر شاه من سلالة تيمور لنك ، وقد خلفه من نسله عدد من الأباطرةالعظام من أمثال :همايون، وأكبر ، وجهانجير ، وشاه جهان ، وأورنجزيب ، ثم خلف من بعدهم خلف من الملوك الضعاف، وظلت الدولة قائمة إلى أن انتهت فى منتصف القرن التاسع عشر .

فهذه دول ثلاث اقتسمت الحكم فى العالم الإسلامى فى القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر ، اثنان منها سنيتان ، وهما الدولة التركية العثمانية ، والدولة المغولية فى الهند ، والثالثة شيعية وهى الدولة الصفوية ، وهى جميعا لم تكن دولا عربية الجنس أو اللسان ، ولهذا أثره الواضح فى اضمحلال الدراسات العربية وانتعاش الدراسات التركية والفارسية .

وكذلك بدا العالم الإسلامى فى القرن السادس عشر قويا مرهوب الجانب لأن الدول الثلاث كانت دولا حربية ، ولكنها لم تلبث فى القرنين التاليين أن نالت منها عوامل الضعف والانحلال .

(ب) دخول الإسلام الهند وانتشاره بها

دخل الإسلام الهند عن طريقين :-

(١) طريق السند . وكان دخوله عن هذا الطريق مع جيش البطل الشاب الفاتح محمد بن القاسم الثقفى فى سنة ٩٢ هـ ،الذى استطاع أن يهـــزم ملك السند (داهر) ، وأن يحاصر مدينة ملتان إلى أن استولى عليها وحطم ما بقى فى معابدها من أوثان وأصنام ،وقد امتدت فتوح محمد بن القاسم حتى شملت إقليم السند كله وجنوب البنجاب ،وظلت هذه الإماره تابعة للخلافة وعن طريقها انتشر الإسلام رويدا رويدا فى المناطق الهندية المجاورة .

(٢) والطريق الثانى : هو منطقة الحدود الشمالية الغربية ،وعبرها انحدرت جيوش محمود بن سبكتكين ـ أو محمود الغزنوى - (٣٨٨ - ٤٢١ هـ) ففتحت إقليم البنجاب وتقدمت حتى استولت على دلهى ومعظم الأجزاء الشمالية من الهند.

وفيما يلى تفصيل الحديث عن الفتحين :

١ - الفتح الأول على يد محمد بن القاسم الثقفى :

فى عهد الخليفة الاموى الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ - ٧١٥) بلغت الفتوح الإسلامية أقصاها شرقا وغربا ، ففى الشرق استطاع القائد قتيبة بن مسلم أن يغزو بلاد ما وراء النهر ،وأن يصل بجيوشه إلى أواسط آسيا ،وفى الغرب استطاع موسى بن نصير أن يخضع بلاد المغرب ،كما استطاع مولاه طارق بن زياد أن يفتح بلاد الاندلس .

وفى نفس الوقت مهدت الأحداث إلى غزو بلاد السند على يد القائد الشاب محمد بن القاسم الثقفى (ابن أخت حاكم العراق فى ذلك الوقت الحجاج بن يوسف وزوج ابنته) .

وأسباب الفتح كثيرة منها :

ـ أن البراهمة حكام إقليم السند كانوا قد أرسلوا بعض الفرق الحربية لمساعدة الفرس فى حروبهم مع المسلمين .

ـ وفى عهد الحجاج فر بعض الثائرين العرب إلى اقليم السند ولجأوا إلى حاكمه ، راجا داهر ، فآواهم وحماهم .

وأما السبب المباشر الذى دفع العرب إلى غزو البلاد فيرجع إلى الغارات التى قام بها قراصنة ديبل ـ ميناء السند الشهير وقتذاك ـ على بعض السفن التى كانت تبحر فى طريقها من جزيرة سيلان إلى بلاد العرب تحمل جثث من ماتوا من التجار العرب فى هذه الجزيرة ومعها زوجات هؤلاء التجار وهدايا مرسلة من حاكم الجزيرة إلى خليفة المسلمين .

وعندما سمع الحجاج بهذا الحادث وأن قراصنة ديبل نهبوا السفن واستولوا على هدايا الخليفة ـ أرسل احتجاجاً شديداً إلى داهر ، وطلب منه أن يعمل جاهداً على معاقبة الناهبين واستعادة الهدايا ، ولكن داهر لم يعر الامر اهتماما ورفض أن يستجيب لطلب الحجاج .

وعند ذلك قرر الحجاج أن لابد من عقاب الراجا نفسه ، واستأذن الخليفة فى أن يرسل جيشاً لفتح بلاد السند ، وتكون الجيش من ٦٠٠٠ جندى من خيرة جند الشام والعراق ، ومعهم عدد مماثل من راكبي الجمال يتبعهم قطار من ٣٠٠٠ جمل تحمل مؤنة الجيش وعتاده ، وعقد لواء القيادة إلى البطل الشاب محمد بن القاسم .

وكان من بين أسلحة الجيش عدد من المنجنيقات لرمى القلاع والحصون والاسوار بالحجارة وكرات الحديد ، وكان أكبرها منجنيق يسمى (العروس) ويديره خمسمائة رجل .

وقاد محمد بن القاسم هذا الجيش عبر مكران متجها نحو ثغر الديبل ، وبدأ القتال ، ونقل إلى محمد بن القاسم أن الجيش المعادى يعتقد أن هناك طلسما أو تعويذه حامية تستقر تحت العلم الاحمر الأكبر الذى يرفرف فوق برج المعبد القائم وسط المدينة ، فأصدر أوامره إلى جنوده أن يجعلوا هذا العلم الهدف الأول لمنجنيقهم الكبير (العروس) ، وسقط العلم السحرى ، وبسقوطه سقطت همم الجند المدافعين عن المدينة ، وانهارت روحهم المعنوية واستسلموا للجيش الفاتح .

خضعت المدينة لمحمد بن القاسم . وأصبحت فى قبضة يده وتحت رحمته . ولكنه منع جنوده من الاعتداء على أحد أو قتله ، وعامل الأهلين معاملة طيبة وكريمة ثم ترك فى المدينة حامية للدفاع عنها ، وتقدم ببقية جيشه نحو « نيرون » وهى مدينة كانت تقع على الضفة الغربية من نهر السند ، فلما وصلها أتاه وفد من كهنتها البوذيين وأبرزوا له أمانا صدر اليهم من الحجاج ، فأمنهم ودخل المدينة دون قتال ، وفى نيرون اتخذ المسلمون اجراءات تيسر لهم اقامتهم كما بنوا بها مسجدا .

وتقدم المسلمون بعد ذلك يتممون فتحهم ، فاستولوا على مدينة سهوان دون مقاومة . ثم تركوها إلى مدينة سيسام حيث قضوا على مقاومة من بها من الجات (الظط)

وفى ذلك الوقت أعد راجا داهر جيشا ضخما من ٥٠,٠٠٠ فارس واستعد للدفاع وراء أسوار حصن راوار ، ولم يأبه محمد بن القاسم ورجاله بحر يونيو اللافح ولا بسهام العدو التى انصبت عليهم كأنها المطر ، وعبروا النهر إلى الضفة المقابلة التى يقوم عليها الحصن ، ووجدوا أنفسهم يقفون وجها لوجه أمام أكبر جيش اعترضهم منذ وطئت أقدامهم أرض السند .

واستمر القتال سجالا أربعة أيام كاملة ، وفى اليوم الخامس (وكان يوافق العاشر من رمضان) قاد داهر المعركة بنفسه بصف من الفيلة تثير الرعب فى النفوس ، وشعر المسلمون بتفوق جيش العدو فى العدد والعدة ، فثارت حماستهم

وانقضوا عليه فى بسالة منقطعة النظير ، وأصاب سهم الفيل الذى يركبه داهر فولى الفيل هاربا ، وظل داهر يقاتل راجلا إلى أن قبض عليه أحد الجنود العرب وقتله ، فتخاذل العـــدو ، وتقدم المسلمون لحصار الحصن واستولوا عليه بعد مقاومة يسيرة .

وبعد هذا النصر الذى أحرزه محمد بن القاسم فى مدينة «راوار» Rawar تقدم بجيشه نحو «برهمناباد» Brahmanabad وهى مدينة قديمة كان لها شأن فى تلك العصور ، وكانت تقع على مسافة ٤٥ ميلا من حيدراباد السند .

ولم يكد الجيش العربى يقرب من المدينة حتى لاذ ابن داهر بأذيال الفرار ، وترك أمر حمايتها والدفاع عنها لقواده ، ولكن هؤلاء القواد عجزوا عن مقاومة الحصار ، فسلموا المدينة دون قيد أو شرط ، ودخلها محمد بن القاسم منتصرا مظفرا وأصدر كعادته العفو والأمان للسكان المدنيين .

وفى «برهمناباد» لبث محمد بن القاسم قليلا ليعيد تنظيم الادارة فى المنطقة التى استولى عليها ، وليرسى هذه التنظيمات على قواعد سليمه ، من السماحة والعدل ، فقد أباح لغير المسلمين الحرية الدينية ، كما أمر بأن يعاد بناء بعض المعابد التى خربتها الحرب ، وسمح للبراهمة أن يمارسوا حقوقهم وأن يحتفظوا بامتيازاتهم القديمة .

واستأنف محمد بن القاسم جهوده الحربية بعد قليل ، فاتجه بجيشه نحو حصن «أرور» وكانت زوج داهر وابنه قد لجأ اليها واحتميا بها ، ولكنهما لم يكادا يسمعان بقرب الجيش العربى حتى أسرعا بالرحيل وسلمت الحـــامية الحصن دون مقاومة .

وكانت الخطوة التالية من خطوات الفتح مدينة «ملتان» Multan وقد قاومت مقاومة عنيفة . ولكنها لم تلبث أن خضعت وسلمت ، وفى ذلك الحين وصلت الأنباء بموت

الحجاج ،فأوقف محمد بن القاسم الفتوح وعاد إلى حصن «ارور» ، وكان آخر مافتح مدينة يقال لها (الكيرج) فتحها عنوة سنة ٩٦ هـ ، ثم أتاه بعدها نبأ وفاة الخليفة الوليد ، وتولية أخيه سليمان الخلافة من بعده ، ولم ينس سليمان أن أخاه قد بذل الجهد الجهيد لعزله من ولاية العهـــد وحرمانه من تولى الخلافة ليمهد الطريق لتولية ابنـه ، وكان يؤيده فى هذا المسعى الحجـاج بن يوسف ، ومحمد ابن القاسم ،ولهذا لم يلبث الخليفة سليمان بن عبد الملك ان صب جام غضبه على محمد بن القاسم ، وأصدر أمره بعزله عن السند وولى مكانه يزيد بن أبى كبشة،فقبض على محمد وقيده وأرسله فى حالة مهينة إلى العراق .

وحزن أهل السند لما أصاب محمدا واحتفظ أهل الكيرج بصورة كانوا قد رسموها له ، وفى العراق وكل به الخليفة من عذبه وقتله .

وهكذا فاضت روح البطل الشاب الذى استطاع فى أقل من ثلاث سنوات أن يفتح إقليم السند ويبسط لأول مرة نفوذ الدولة الاسلامية فى بلاد الهند ، وكان لموته وقع أليم فى نفوس أهل السند ، واحتفظ سكان الكيرج - كما ذكرنا - بصورة كانوا قد رسموها لمحمد تخليدا لذكراه .

ولقد كان للفتح العربى للهند آثار جد خطيرة ، فقد فتح أبواب شبه القارة الهندية للدين الاسلامى وللثقافة الاسلامية ، ومهد لقيام علاقات تجارية وثقافية نشيطة بينها وبين العالم العربى ، وأسرع سكان إقليم السند بعد الفتح باعتناق الدين الاسلامى طواعية واختيارا ، ولم يمض غير وقت قصير حتى أصبح هذا الإقليم يكون جزءا هاما من أجزاء العالم الاسلامى ، وأصبحت ملتان مدينة عالمية ولبثت قرونا طويلة تعتبر أكبر مركز ثقافى وتجارى فى غربى الهند .

ففى السند وضعت الأسس الأولى لقيام حكومة اسلامية ،ومنه انتشرت السيادة الاسلامية إلى سائر أنحاء شبه القارة الهندية ، وقد استطاع العرب فيما بعد أن يتمثلوا الحضارات اليونانية والفارسية والمصرية القديمة ، وأن ينقلوا إلى العربية

أهم مؤلفات هذه الشعوب القديمة ، وقد نقلوا هذا المزيج الجديد من الحضارة معهم إلى الهند ، وهناك أضافوا اليه قبسا جديدا من الحضارة الهندية ، فدرسوا العلوم الهندية وأخذا عنها الشيء الكثير وخاصة نظام الأرقام الحسابية الهندية، وعنهم نقلتها معظم شعوب أوربا حيث لاتزال تعرف عندهم (بالأرقام العربية)

٢ - الفتح الثانى على يد محمود الغزنوى :

كان سبكتكين واليا على أفغانستان من قبل السامانيين ، وقد عمل على توسيع حدود ولايته فحصل على إمرة خراسان من مولاه السامانى، كما غزا إقليم البنجاب وهزم حاكمه جيبال ، وأقام فى مدينة بشاور حكومة إسلامية ، فلما توفى فى سنة ٣٨٧ خلفه ابنه محمود .

وكانت الدولة السامانية وقتذاك فى دور الاحتضار ، فقضى محمود عليها ، وورث ملكها واستقل بها مع ولائه للخلافة العباسية ، فى سنة ٣٩٠ هـ اعترف الخليفة العباسى القادر بمحمود واليا ، ولقبه بامين الملك ويمين الدولة ، وقد اتخذ محمود مدينة غزنة عاصمة لملكه ، ولهذا يعرف فى التاريخ باسم محمود الغزنوى، كما تعرف الدولة التى أسسها باسم الدولة الغزنوية . وقد امتدت دولة محمود حتى شملت شمال الهند وأفغانستان وبلاد ما وراء النهر والجزء الأكبر من بلاد فارس.

حكم محمود أربعة وثلاثين عاما غزا فى خلالها بلاد الهند سبع عشرة غزوة استطاع فى نهايتها أن يقيم للغزنويين ملكا شاسعا فى معظم بلاد الهند .

- كانت غزوة محمود الأولى لبلاد الهند فى ٣٩١هـ (١٠٠٠م) وكانت فى الواقع غزوة استطلاعية ، فلم يتجاوز فيها بجيوشه المرتفعات المجاورة لمدينة بشاور على الحدود الشمالية الغربية لبلاد الهند .

- وفى السنة التالية ٣٩٢ (١٠٠١) قام محمود بغزوته الثانية الهامة ، فعبر نهر السند . وانتصر على « جيبال » راجا لاهور بعد قتال عنيف، وغنم غنائم كثيرة

من بينها القلادة التي كان يحلى بها جيبال عنقه ، وكانت من الجواهر الثمينة ، وتقدر قيمتها بنحو مائتي الف دينار ، وأطلق محمود بعد ذلك سراح جيبال بعد أن افتدى نفسه بمبلغ كبير من المال ، ولكنه لم يل الملك بعد ذلك،فقد كان من عادة الهنود أنه إذا أسر المسلمون أحد أمرائهم لا يعترفون له بالرئاسة بعد ذلك، ولهذا لم يرض جيبال عن حاله بعد خلاصه من الأسر فألقى بنفسه إلى النار ، وخلفه ابنه (أنانج بال) على العرش .

وفى غزوة سنة ٣٩٦ (١٠٠٥) تقابل محمود مع هذا الابن فهزمه واضطره إلى الفرار إلى كشمير ، ثم تقدم محمود بعد ذلك وهاجم إمارة ملتان ، فقد كان حاكمها أبو الفتوح شيعيا،ومحمود سني يعتبر غير السني مارقا وخارجا على الدين .

وفى سنة ٣٩٩ (١٠٠٨) غزا محمود الهند لمحاربة (سيوه بال) الذى كان قد أسلم على يد محمود ، وولاه إقليم ملتان نائبا عنه ، ولكنه ما لبث أن ارتد إلى الهندوكية ، ولهذا خرج محمود لتأديبه .

ـ وفى سنة ٤٠٠ (١٠٠٩) أعد (أنانج بال) ابن (بيجال) جيشا كبيرا واستعد لمقاتلة محمود، يعاونه ويؤيده كثير من أمراء الهند ، وكان الهنود يستعملون ـ كعادتهم ـ الفيلة فى حروبهم ،ولكن المسلمين استخدموا القذائف النارية ، ففزعت الفيلة ونفرت ، وتفرق الهنود ، وانتصر محمود،وغنم غنائم كثيرة وحمل الكثير من نفائس المعابد الهندية إلى غزنة .

ـ وفى سنة ٤٠٧ (١٠١٦) غزا محمود الهند ، وكانت وجهته ولاية كشمير ، فانتصر فى كثير من المواقع وضم كشمير إلى ملكه ، وبعد عودته من هذه الحملة أمر ببناء جامعه فى غزنة ، ويقول ابن الأثير إنه بنى بناء لم يسمع بمثله ، وأنفق ما غنمه فى هذه الغزاة فى بنائه .

ـ وفى غزوة سنة ٤٠٩ (١٠١٨) استطاع محمود أن يعبر نهر الجانج لأول

مرة وأخضع مدينة « ماترا » ودانت له بالولاء مدينة « قنوج » .

ـ وكانت غزوة سنة ٤١٦ (١٠٢٥) أعظم غزوات محمود فى بلاد الهند ،فقد استطاع أن يتقدم جنوبا إلى شبه جزيرة جوجرات وأن يحطم معبد سومنات العظيم هناك ، يقول ابن الأثير إن محمودكان كلما فتح بلدا من بلاد الهند وحطم ما بها من أصنام يقول الهنود «إن هذه الأصنام قد سخط عليها سومنات ، ولو أنه راض عنها لأهلك من قصدها بسوء » .

فلما بلغ محمودا ذلك أصرعلى تحطيم هذا المعبد ظنا منه أن الهنود إذا رأوا أن عقيدتهم فى سومنات كانت باطلة دخلوا فى الاسلام ، ولهذا خرج محمود من غزنة يقود جيشا من ثلاثين ألف فارس، وعبر إقليم السند واتجه جنوبا إلى جوجرات، فقاومه أهلها مقاومة عنيفة ، ولكن النصر كتب أخيرا لمحمود ، ودخل معبد سومنات وحطم سومنات نفسه،ويقال إنه حمل قطعة منه جعلها عتبة جامعه فى غزنة

وفى تاريخى العتبي وابن الأثير وصف تفصيلى للنفائس التى غنمها محمود من هذا المعبد ، وقد أرسل محمود بعد هذا الفتح العظيم الذى ضم إلى ملكه معظم بلاد الهند خطابا إلى الخليفة العباسى وصف فيه انتصاراته ، ومعبد سومنات ، ومبلغ إيمان الهنود به ،وقد أورد ابن خلكان فى ترجمته لمحمود الغزنوى صورة هذا الخطاب .

وبعد هذه الغزوة أقام محمود فى الهند شهورا ثم ،عاد إلى غزنة فى ١٠٢٦ ، ثم زار الهند زيارته الأخيرة بعد ثلاث سنوات (١٠٢٩) .

وفى سنة ٤٢١ (١٠٣٠) توفى محمود وهو فى الحادية والستين من عمره ، وقد اتخذ ابنه مسعود « لاهور » مقرا لحكمه ، وتوالى على حكم الهند أبناؤه وأحفاده إلى أن انتهت الأسرة الغزنوية فى سنة ٥٤٧ ﻫ (١١٥٢) .

وتوالت على بلاد الهند دول إسلامية كثيرة إلى أن كان القرن السادس عشر ، وانحدر « بابر » عبر نفس الطريق بجيوشه المغولية مكونا دولة الأباطرة العظام ،

التى مدت سلطانها حتى شمل معظم أجزاء الهند ، والتى ظلت تحكم شبه القارة الهندية نحو ثلاثة قرون .

ونتيجة لهذه الفتوح ،ولقيام الدول الإسلامية المتتابعة انتشر الدين الاسلامى فى جميع أنحاء الهند ، ولكننا نلاحظ أن هناك عاملا آخر كان أكثر تأثيرا فى انتشار الاسلام فى الهند ، وذلك هو سبيل الدعوة الدينية السليمة التى تسير مع ركب الحياة وتطورها ، فعن طريق التجار واتصالاتهم ، وعن طريق الفقهاء والوعاظ ودروسهم ، وعن طريق العلماء والمتصوفة ورحلاتهم ومدارسهم انتشر الاسلام بين الهنود ، فهؤلاء جميعا كانوا فى معظمهم من العرب أو المثقفين بالثقافة العربية ، فى حين أن الفتوح الاسلامية ـ باستثناء الفتح الأول الذى قاده محمد بن القاسم ـ قامت بها جيوش وعناصر غير عربية من الترك والفرس المغول .

وهذه ناحية هامة نعتبرها مفتاح دراسة الاسلام فى الهند ، فان معظم هذه الجيوش والعناصر والدول التركية والمغولية كانت فى معظمها حديثة عهد باعتناق الاسلام، وقد نقلت معها الثقافة الفارسية ومظاهر الحياة التركية والفارسية والمغولية، ولهذا انتشرت فى المجتمع الاسلامى بالهند اللغة الفارسية (لغة الثقافة فى ذلك العصر) ، واللغة الأوردية ، ولم تنتشر اللغة العربية ، وبالتالى لم تزدهر الثقافة العربية فى الهند ازدهارها فى الاقاليم والدول الاسلامية الأخرى ،وساعد على هذا أن معظم العلماء والشيوخ الذين وفدوا على الهند كانوا من علماء ما وراء النهر ، وهؤلاء كانوا من أتباع مذهب أبى حنيفة يعتمدون على كتب المتأخرين من فقهاء هذا المذهب ، كما كانوا شغوفين بعلوم اليونان القديمة ، ولغتهم الثقافية الأثيرة لديهم هى اللغة الفارسية ، ولهذا اصطبغت الثقافة الاسلامية فى الهند بهذه الصفات الثلاث ، ولم تقم على أسس سليمة قوية من الثقافة العربية .

ولكن ليس معنى هذا أن الهنود لم يعرفوا اللغة أو المؤلفات العربية ، بل

لقد عرفوها وانتشرت بينهم وتعلمها الكثيرون منهم وألفوا بها ، ولكن الذى نعنيه أنها كانت أقل انتشارا وتأثيرا فى المجتمع الاسلامى الهندى إذا قورنت بالثقافتين الفارسية والتركية المغولية .

وقد توالت على الهند منذ دخلها الاسلام دول إسلامية كثيرة متعاقبة كانت دولة أباطرة المغول آخرها وأهمها وأوسعها ملكا . وأطولها عمرا ، وأرقاها حضارة وهذه الدولة هى موضوع دراستنا فى الفصول التالية .

الفصل الأول

ظهير الدين محمد بابر

(٩٣٢ — ٩٣٧ هـ = ١٥٢٦ — ١٥٣٠)

يبدأ العصر المزدهر فى تاريخ الهند بتقدم بابر ملبيا لدعوة علاء الدين لودى عم الأميرين : إبراهيم لودى السلطان القائم بالحكم ، ودولة خان لودى حاكم البنجاب .

وكان انتصار بابر فى معركة بانيبات الأولى على إبراهيم لودى إيذانا ببدء عهد جديد فى تاريخ الهند، فقد مهدت هذه المعركة السبيل لقدم المغول واستقرارهم فى هذه الدولة واتخاذها موطنا دائما، وكانت أهم نتائج النصر فى بانيبات قيام الأسرة المغولية التى أظهرت عدداً من هؤلاء الحكام العظام الذين وصلت الهند تحت حكمهم إلى أوج عظمتها وقمة مجدها وغناها .

ولقد امتازت الامبراطورية المغولية بما ساد فيها من نظم نافعة للحكم ومن أفكار ناضجة مما كان له أثر واضح فى ازدهار الفنون الجميلة وتقديم العلوم والآداب .

وسنرى فيما يلى أن بلاط السلاطين كان طوال الفترة التى ساد فيها حكم المغول يضج وكأنه خلية النحل بمن كان يغشاه من الشعراء والمصورين والمؤرخين والفلاسفة والموسيقين والمهندسين والمعماريين،ويرجع الفضل فى ظهور هذا العدد الكبير من رجال الفن ونشاطهم الثقافى إلى رعاية السلاطين وتشجيعهم .

وينتهى بابر بنسبه من ناحية أبيه إلى (تيمور لنك) ، ومن ناحية أمه إلى (جنكيز خان) ، فنى عروقه كانت تجرى دماء قائدين من أعظم قواد أواسط آسيا الحربيين ، وفى شخصه اجتمعت نسب متساوية من شجاعة تترى بدوى ، ومن ثقافة فارسى متحضر .

ولم يكن بابر – مع هذا – مغوليا بل إنه يتحدث عن المغول فى مذكراته باحتقار ، ويفتخر بأنه تركى ، ولهذا يبدو عجيبا أن تسمى الدولة التى أنشأها بالدولة المغولية، غير أن تفسير هذا يرجع إلى أن أهالى الهند إعتادوا أن يسموا كل الغزاة المسلمين - باستثناء الأفغان - مغولا ، ومن هنا سميت أسرة بابر كذلك بالأسرة المغولية .

نشأته الأولى :

وقد ولد ظهير الدين محمد الملقب ببابر - أى النمر - يوم الجمعة ٢٤ فبراير سنة ١٤٨٣ ، ، وكان والده «عمر شيخ مرزا» حاكما على إقليم فرغانة، أحد أجزاء امبراطورية تيمور فى وسط آسيا .

وعندما بلغ الحادية عشرة من عمره توفى والده فخلفه على ملكه ، ولكن هذا الاجراء لم يلق قبولا من أعمامه وأولاد أعمامه ، وبدأ واحد منهم بمهاجمته بعد توليته العرش ، وظل الباقون يدبرون المؤامرات ضده إلى آخر لحظة من حياتهم .

وكان من حسن طالعه أن أحمد ميرزا الذى كان يتطلع إلى عرشه قد توفى بعد مرور سنة واحدة تاركا سمرقند تسودها الفوضى والاضطراب. فانتهز بابر هذه الفرصة السانحة ، وتقدم من فرغانة ودخل سمرقند واستولى عليها ، وهناك أقام نفسه على عرش جده الأكبر تيمور ولم يكن قد تجاوز الخامسة عشرة من عمره . وفى ملكه الجديد اعتراه مرض فاستغل وزيره الطموح فرصة غيابه ومرضه وأقام على عرش فرغانة جهانجير الأخ الأصغر لبابر ، مشيعا أن بابر قد مات .

وبعد إبلال بابر من مرضه أسرع بالخروج من سمرقند متجها نحو فرغانه لاستعادتها، ولكن لم يكد يغادر سمرقند حتى استولى عليها ابن عم له يدعى على. وبذلك فقد ملكه هنا وهناك ولم يبق تحت يده فى هذه السنة (١٤٩٨ م) غير

الاباطرة الأربعة الكبار

بابر وهمايون

أكبر وجهانجير

مدينة خوقند ، وهى مدينة صغيرة فى الطريق بين فرغانة وسمرقند .

ولكنه استطاع أن يستعيد فرغانه فى سنة ١٤٩٩ م ، وسمرقند فى السنة التى تليها ، غير أن قبائل الأزبك لم تدعه يباشر حكمه فى سلام ، ولم يلبث أن هزم أمامهم فى معركة عنيفة عند أرشيان — Archian فى سنة ١٥٠١ م ، ونجا بحياته بصعوبة شديدة . وبذلك فقد ملكه ثانية فى كل من سمرقند وفرغانة .

عند ذلك ودع بابر وطنه الحبيب فرغانه ، وبدأ يحاول تكوين ملك جديد وراء جبال هندكوش — وتعتبر سنة ١٥٠٤ سنة سعيدة فى حياة بابر ، ففى هذه السنة استطاع أن يهزم الأفغان وأن يستولى على مدينة كابل ، وبذلك فتح له الطريق للاستيلاء على مدن أفغانستان الكبيرة الأخرى : قندهار ، وهرات ، وبدخشان .

كل هذه الانتصارات شجعته على التطلع لاستعادة سمرقند عاصمة جده الأكبر تيمور ، ففى سنة ١٥١٣ عقد حلفا مع شاه فارس إسماعيل الصفوى ، وبذلك استطاع أن يفتح مدينتى بخارى وسمرقند ورغم هذه الانتصارات ظل ملكه مزعزعا فقد كان الأزابكة لايزالون يهددونه ، كذلك كان قبوله لمذهب الاثنى عشرية فى معاهدته مع ملك فارس سببا فى اثارة رعاياه من السنة وبعدهم عنه ، وقد استغل الأزابكة شعور هؤلاء الرعايا إلى أبعد حد ، وبدأوا يصطادون فى الماء العكر ، واستطاعوا فى وقت وجيز أن يزيحوه عن أملاكه وأن يطردوه من مدينة إثر مدينة ، واضطر بابر أخيرا أن يتجه ببصره نحو الشرق عساه يستطيع أن يكون له ملكا جديداً هناك .

محاولاته الأولى لفتح الهند :

سبقت معركة بانيبات محاولات تمهيدية لغزو الهند . كانت أولى هذه المحاولات فى سنة ١٥٠٥ عندما استولى بابر على مدينة غزنة ، ووصل بفتوحه الى حدود

السند ، وفى السنة التالية عبر السند وتوغل فى داخل الهند ، ولكنه استدعى سريعا إلى كابل ليواجه غارة من غارات الازابكة أعدائه القدامى .

هذه المحاولات التمهيدية أقنعت بابر أنه لايستطيع فتح الهند قبل تقوية قاعدة ملكه فى قندهار، ولهذا بدأ بالاستيلاء على هذه المدينة من الأفغان وأخذ يعدها لتكون مركزا من مراكز الدفاع، وأتبع هذا ببسط سلطانه على المنطقة الممتدة بين غزنة وخراسان ، وكانت هذه الإجراءات جميعا تمهيدا لغزوه المرتقب للهند .

الحالة فى الهند قبيل غزو بابر :

كانت الأحوال السياسية فى الهند قبيل إقدام بابر على غزوها سيئة غاية السوء، وكانت الأجزاء الشمالية تسودها البغضاء والانقسامات ، فقد مات اسكندر لودى فى سنة ١٥١٧ وكان حكيما قديرا ، ولكن خلفه على عرش دلهى ابن أحمق هو ابراهيم لودى ، وقد أثارت سياسته الخرقاء إشمئزاز أمراء الأفغان ، فبدأوا يأتمرون به فى السر ، ثم استقلت البنغال وجنبور Jaunpur ومالوا وجوجرات Gujarat وغيرها من ولايات الأطراف .

كذلك أعلنت أوذ Oudh وبهار Bihar من ولايات الشرق راية العصيان ، وثار دولت خان لودى حاكم البنجاب وعلاء الدين لودى - عم إبراهيم - وأرسلا يستنجدان ببابر لتخليص الهند من هذا الحاكم المستبد ابراهيم، كذلك استغاث به رانا سانغا Rana Sangha زعيم الراجبوت .

ولم يكن فى حسبان بابر أن يوفق لفرصة أحسن من هذه الفرصة، فقد كانت الهند ضعيفة ومفككة فى حين كان بابر قويا ومستعدا ، وأخيرا فى سنة ١٥٢٤ خرج بابر بحملته النهائية متبعا الطريق الذى أتبعه من قبل إلى أن وصل إلى مدينة لاهور، ولكنه وجد دولة خان منضما إلى ابراهيم لودى فعاد إلى كابل ليعمل على تقوية جيشه ثم يهاجم الهند .

فتح الهند :

وفى سنة ١٥٢٥ هاجم بابر دولت خان واستولى على البنجاب ، ثم تقدم نحو دلهى مارا بسرهند ، وعند ذلك جمع ابراهيم لودى جيوشه وخرج من أجرا لمقابلة هذا العدو الفاتح ، وتقابل الجيشان فى سهل بانيبات فى شهر ابريل سنة ١٥٢٦ ، وكان جيش بابر يتكون من ١٢,٠٠٠ من الجنود الشجعان ، وقد عمل على حماية هذا الجيش ضد هجمات أعدائه بأن أقام سياجا من العربات المتصلة تعززها الاسوار والخنادق ، أما جيش ابراهيم فقد كان يفوق جيش بابر فى العدد كثيرا إذ بلغت عـــدته ١٠٠,٠٠٠ جندى ، ولكن جيش بابر كان أحسن تدريبا كما كانت به فرقة ممتازة من المدفعية ،ولهذا سرعان ما انتصر بابر على خصمه واستولى نتيجة لهـــذا النصر على دلهى وأجرا حيث رحب به أهالى العاصمتين باعتباره « امبراطورا للهند » وفى يوم الجمعة ٢٢ ابريل سنة ١٥٢٦ خطب باسمه على منبر المسجد الجامع فى العاصمة دلهى .

وهكذا وضعت معركة بانيبات الأولى حدا لحكم الافغان فى الهند ، وكان إيذانا ببدء الحكم المغولى ، وأصبح بابر حاكما على دلهى ، ولكن هذا لم يعن أنه أصبح حاكما على الهند ، فقد كانت لا تزال تنتظره صعوبات كثيرة لتحقيق هذا الهدف الاكبر .

الصعوبات التى واجهته : الافغان والراجبوت :

كان أعداؤه ومنافسوه من الافغانيين يمثلون الصعوبة الأولى ، حقيقة لقد انتصر عليهم ، ولكنهم لم يخضعوا له خضوعا نهائيا ، بل ظل نفر منهم يحتفظون بملكهم وقلاعهم فى بعض الاقاليم ينادئون سلطان بابر ، كما أن الشعب كان كارها

بابر بادشاہ

للامبراطور المغولى ويعتبره مغتصبا للملك ، فقدكان يؤثر أن يتولى أموره حاكم مستبد على أن يتولاها مغتصب دخيل .

وزاد فى حرج مركز بابر أن كثيرين من أتباعه تركوه وانسحبوا عائدين الى موطنهم الأصلى، فقد ضايقتهم حرارة الهندالشديدة وأثرت فى صحتهم،فبدأوا يلتمسون منه الاذن بالعودة .

ولكن أهداف بابر من فتح الهند لم تكن كأهداف جده الأكبر تيمور ، إنه لم يأت لكى يفتح الهند ويلحقها بملكه الأصلى خارجها ، بل لقد أتى ليتخذها دار ملك وإقامة ، ولهذا بدأ فألقى فى جنوده خطابا حماسيا مثيرا لرفع روحهم المعنوية وتحريضهم على البقاء ، لقد قال لهم « ان ملكا كهذا كلفه هذا العناء كله لا يمكن أن يفرط فيه أو يتنازل عنه إلا بالموت » . وأعلنهم أنه قد عزم عزما أكيدا على البقاء فى الهند ، وأنه يعطى الإذن بالرحيل لأولئك الجنود الذين يؤثرون السلامة على المجد ويرحب ببقاء أولئك الذين يعتزون بالنصر والشرف، ويخلصون لسلطانهم ولوطنهم .

وكان لهذا الخطاب أثره فى نفوس أتباعه ،فامتنعت المعارضة ، وأقسم القواد يمين الولاء له ، وكان لهذا نتيجة طيبة أخرى ، فان الأفغانيين عندما أيقنوا أن بابر قد اعتزم البقاء فى الهند أسرعوا بالانضمام اليه،ووضعوا أنفسهم تحت خدمته.

حروبه مع الراجبوت Rajputs

كان من نتائج هذا القرار بالبقاء أن الراجبوت بدأوا يحسون خطر هذا التحول، ولكن قواد بابر الذين أغدق عليهم العطايا والاقطاعات بدأوا يعملون على ضم أجزاء كثيرة من الهند إلى ملكه ، ففتحوا أقاليم : بياناه Bianah وجواليور Gualior ودولبور، Dholpur ، كذلك استولى ابنه همايون على جونبور Jaunpur وغازى بور وضمها إلى ملك أبيه ، وأقام بابر فى أجرا يرسم الخطط لفتح الهند كلها.

موقعة خانواه Khanwah سنة ١٥٢٧ :

أما رانا سانغا الذى كان قد استنجد ببابر فقد ظن خطأ أن بابر سيفعل كما فعل جده تيمور فيغير على الهند ثم يجمع مايستطيع جمعه من الغنائم ويعود ، ولكنه عندما علم بما قر عليه رأى بابر بدأ يتخذ العدة للمقاومة، وكان بابر حينذاك يهاجم إقليم راجبوتانا Rajputana واستولى على بعض أجزائه .

وكان رانا سانغا أميرا حكيما فاضلا يتمتع بمكانة مرموقة بين أمراء الراجبوت فى الهند ، واعترف له راجات أمبر Amber وماروار Marwar بالسيادة كما اعترف له بالولاء أمراء أجمير ، وسكرى ، وتشاندرى Chanderi وغيرها ، وذلك باعتبارهم من مقطعيه .

ولقد كان رانا يريد باستدعائه بابر أن يمهد السبيل لنفسه لتولى عرش الهند كلها ، ولتحقيق هذا الهدف كان قد دعم قواته وموارده العسكرية بحيث أصبح فى ذلك الوقت أكبر الأمراء الهنـــود نفوذا ، كما أصبحت إمارته أولى الإمارات مكانة .

وكان رانا قبل أن يصطدم بقوى بابر قد أحرز البطولة فى مائة معركة سابقة، وأصيب فى خلالها بما يزيد على ثمانين جرحا ، وفقد فى هذا كله إحدى يديه، وإحدى ساقيه ، وعينا من عينيه .

وفى الحادى عشر من فبراير سنه ١٥٢٧ تقدم بابر من مدينة أجرا لمقابلة رانا الذى كان يعسكر فى سكرى - وهى قرية قريبة من فتحبور Fathpur - وقد صمد الراجبوت للهجمات الأولى ، ولاذ المنهزمون بأذيال الفرار، مما أثار الرعب والفوضى فى جيوش المغول ، وفى هذه الساعات الحرجة حطم بابر كؤوس الخمر التى كان يشربها ، ثم أقلع عن شربها تماما منذ تلك اللحظة .

وجمع مجلس الحرب لتبادل الرأى ، فنصحه قواده بأن يترك حامية فى أجرا

وينسحب إلى البنجاب ، ولكنه أجابهم بقوله :

« ماذا يقول كل الملوك المسلمون فى العالم عن ملك دفعه الخوف من الموت لترك مثل هذه المملكة ؟ » .

خطاب بابر لقواده وجنده :

ثم ألقى بابر فى قواده وجنوده خطابا أثار فيه حماسهم للقتال قال فيه :

« أيها النبلاء والجند :

كل إنسان يأتى إلى هذه الحياة معرض للفناء ، ونحن عندما نموت وتنتهى حياتنا يبقى الله وحده لا يصيبه ـ سبحانه وتعالى ـ تحول ولا تغير ، وكل من يدعى إلى مائدة الحياة يجب أن يشرب من كأس الموت قبل أن ترفع المائدة ، واولئك الذين يصلون إلى دار الفناء مقــــدر عليهم أن يرحلوا يو ن هذه الدنيا ـ دار الأحزان ـ ، فمن الخير إذن أن يموت الإنسان مكللا بأكاليل الفخر والشرف من أن يحيا موصوما بالذلة والعار .

فأنا قانع بالذكرى الطيبة ، حتى ولو انتهى بى الأمر إلى المــــوت فلتكن الذكرى الطيبة نصيبي مادام مصير جسمى الفناء .

لقد أدركنا الله ـ جل جلاله ـ بعطفه ، ثم بلانا الآن بهذه المحنة ، فاذا سقطنا صرعى فى الميدان ، فاننا نموت ميتة الشهداء .

أما إذا كتب لنا البقاء فاننا سنحيا منتصرين بعد أن نكون قد ثأرنا لدين الله فلنكن كلنا إذن كرجل واحد ، ولنقسم باسم الله العلى العظيم أن لا يفكر واحد منا فى ترك القتال أو مغادرة المعركة إلا إذا فارقت روحه الجسد » .

هزيمة رانا سانغا ومصير حلف الراجبوت :

هذه الخطبة الحماسية المثيرة حققت الهدف الذى كان يرمى بابر إلى تحقيقه ، فقد أثارت شعور جنده وأتباعه فأقسموا جميعا على القرآن الكريم أن يقفوا

إلى جانب قائدهم فى السراء والضراء .

وفى صباح يوم ١٦ مارس سنة ١٥٢٧ بدأت المعركة وحمى وطيسها حتى مقدم المساء ، وفى خانواه تقابل الفريقان وجها لوجه : فريق يضم قوى الراجبوت المتحالفة تحت قيادة قائدهم الجبار رانا سانغا ، وفريق ثان يضم بقـــايا الجنود الأتراك تحت قيادة سلطانهم بابر .

وقاتل الفريقان كأحسن مايكون القتال ، ولكن لم تكد الشمس تؤذن بالمغيب حتى كانت الهزيمة قد لحقت بالراجبوت ، وفر رانا . وقبض على رفقائه وقتلوا ، وكانت خسائر الراجبوت فى هذه المعركة فادحة ، فقد قتل عدد كبير من قوادهم .

ومما لاشك فيه أن موقعة خانواه تعتبر من المواقع الحاسمة الفاصلة فى تاريخ الهند ، فقد وضعت حداً لسلطان الراجبوت ، وكانت إيذانا ببدء امبراطورية المغول ، وعلى إثرها جلس بابر على عرش ابراهيم لودى وختم ، بذلك مرحلة من حياته وبدأ مرحلة جديدة ، ختم مرحلة الحرب والنضال والجهاد فى سبيل إقامة ملك له ، وبدأ مرحلة نضال جديد لتنظيم هذا الملك وتدعيمه ، ومنذ ذلك الحين نقل بابر مقر ملكه من كابل إلى بلاد الهند .

معركة تشاندرى Ghandri :

هذا النصر الذى أحرزه بابر حطم مقاومة الراجبوت، ولكنه لم يقض عليهم قضاء مبرما ، فقد تجمعت فلولهم تحت قيادة قائد من تشاندرى أسمه ماديني راو Madini Rao وبدأوا يعملون لاستعادة سلطانهم على هندستان ، وقد حاول بابر فى أول الأمر أن يجذب ماديني إليه بالطرق السلمية ، فعرض أن يمنحه اقطاعا آخر بدلا من مقاطعة تشاندرى ، ولكنه رفض هذا العرض ، فخرج بابر لقتاله بنفسه ، غير أنه تلقى فى نفس الوقت أخبارا تفيد أن الأفغان هزموا جيشه ،

فقد انتهزوا فرصة غيابه وأرغموا جيشه على مغادرة لكناو Lucknow .

لم تزعزع هذه الأخبار المزعجة إرادة بابر ، بل التزم الصبر ،وشدد الحصار على تشاندرى إلى أن استولى عليها وهزم مادينى راو ، ونتيجة لهذه الهزيمة تم انهيار حلف الراجبوت الأخير ، كما تم إخضاع الأفغانيين الثائرين . وبذلك نعم بابر بفترة من الهدوء والسلام إلى نهاية سنة ١٥٢٨ .

هزيمة الافغان :

لم تضع هزيمة الأفغان حدا لشغبهم ونضالهم ، فقد عملوا بعد ذلك على مقاومة بابر باعتباره مغتصبا للملك ،وكان الأمل يداعبهم أن ينجحوا فى إحياء سلطانهم القديم ، فبدأوا بإثارة الشغب فى بهار ، وجونبور بتأييدهم مطالب محمود لودى أخى ابراهيم . فأسرع بابر بارسال ابنه « عسكرى » إلى الأقاليم الشرقية ، ثم لم يلبث أن لحق به بعد قليل ، ولم يكد يقترب من هذه الأقاليم حتى فر العدو هاربا ، ثم تلقى بابر أثناء انتقاله من الله أباد إلى بوكسر Buxar أنباء تفيد أن قواد الأفغان قد أذعنوا وخضعوا خضوعا تاما .

كذلك عقدت معاهدة بين بابر ونصرة شاه حاكم البنغال تنص على أن لا يحاول واحد منهما الاغارة على ملك الآخر ، ولكن نصرة شاه لم يلتزم المحافظة على هذه المعاهدة فقد استولى على ولاية ساسرام Sasram ولم يكتف بهذا بل آوى الأمير الأفغانى الهارب محمود لودى ، وبذلك اضطر بابر إلى مهاجمة البنغال - باعتبارها مركزا للأفغان الثائرين - واحتلالها .

اتساع امبراطورية بابر فى الهند :

كانت نتائج انتصارات بابر فى الهند أن حطمت قوى الأفغان وأن قضى على سلطان الراجبوت ، وبذلك أصبح بابر سيد الأجزاء الشمالية من الهند ، وواضع الأساس للامبراطورية المغولية .

ظہیر الدین محمد بابر

وأصبحت مملكة بابر تضم كابل، والبنجاب والبنغال ، وبهار ، وأود ،وجزءا كبيرا من راجبوتانا ، وكانت امبراطوريته تمتد من جبال الهملايا فى الشمال إلى جواليور فى الجنوب ، ومن البنجاب فى الغرب إلى حدود البنغال فى الشرق ، وكان من الممكن أن يعمل على اتساع هذه الامبراطورية لو امتد به العمر ولكنه توفى بعد قليل .

وفاة بابر :

وكان صيف ١٥٣٠ شديد القيظ ، وأثرت الحرارة فى صحة ابنه همايون فسقط مريضا ،وقد انزعج والده لمرضه انزعاجا شديدا ،حتى أنه عرض أن يضحى بحياته لانقاذ ابنه الحبيب ،ويروى أنه طاف بفراش ابنه ثلاثا وهو يضرع إلى الله تعالى أن ينقل اليه المرض الذى يصيب ابنه .وكان بابر مخلصا فى دعائه حتى إنه ليقال أنه صاح بعد اتمام طوافه « لقد حملته عنه » ، ويذكر المؤرخون أن بابر أصيب منذ ذلك الحين بالضعف والوهن ،واعتلت صحته فى الوقت الذى أخذ فيه همايون يتماثل للشفاء .

سياسته وإدارته

حكم بابر كبادشاه أوكسيد للهند مدة تقل عن الخمس سنوات ، ولكن حكمه امتاز بالنشاط والحزم والعزم ،وهى الصفات التى امتاز بها فى نضاله الحربى ، فقد جعل من عاصمته أجرا مدينة جميلة تتخللها الحدائق النضرة والقصور الفخمة والحمامات والصهاريج والقنوات المائية ،وأصدر بابر أوامره بترميم المساجد وأقام المحارس ومراكز البريد على مسافات متساوية ،وأنشأ نظاما لنقل البريد السريع بين كابل وأجرا ، وكان ينتقل خلال ملكه الجديد فى الهند ليتفقد أحواله بنفسه، فجذب بذلك قلوب رعاياه من الهنود ، وبدأوا يطمئنون لحكمه .

وكان نظام الحكم الذى اتبعه بابر هو النظام السائد فى عصره ،فقد قسم المملكة

إلى إقطاعات، ووزعها على قواده، ولم تتح الفرصة لبابر ليضع لحكومته نظاما وقوانين جديدة، ولو طال به العمر لأثبت أنه حاكم قدير.

وإن وصيته السرية «وصيتنا مىء مخفى» Wasiyyat nama-i-makhfi التى تركها لابنه وخليفته همايون لتبين فى وضوح سياسته فى الحكم، وهى السياسة التى التزمها ابنه همايون، والتى أتت أكلها فى عهد أكبر وخلفائه. كانت هذه السياسة تدعو إلى السلام، وتجعل التسامح الأساس الأول للحكم المغولى فى الهند، فهى بذلك تدل على عبقرية واضعها الإدارية. ولأهمية هذه الوصية، ولأنها وثيقة تاريخية فريدة تدل على أن واضعها رجل من رجال الحكم المستنيرين فقد آثرنا إثباتها هنا:

« الحمد لله

وصية سرية من ظهير الدين محمد بابر باد شاه غازى إلى الأمير ناصر الدين محمد همايون، أطال الله بقاءه.

من أجل إستقرار المملكة كتبت هذه الوصية:

أى بنى: إن دولة الهند مليئة بالعقائد المتباينة، والحمد لله الحق العلى المجيد أن وهبك ملكها، وإنه لمن الصواب أن تقدم بقلب خال من كل تعصب دينى على نشر العدل تبعا لعقائد كل جماعة من الناس، وبوجه خاص أن تمتنع عن ذبح البقر، فان هذا هو السبيل لامتلاك قلوب الشعب فى هندستان، ورعايا مملكتك سيخلصون لك الإخلاص كله إذا أحسوا منك حدبا وعطفا.

والهياكل وأماكن العبادة التابعة لكل فرقة دينية تحت حكمك يجب أن لا تخربها، وانشر العدل بين الناس حتى يعيش الحاكم سعيدا مع رعاياه، وحتى

يعيش الرعايا سعداء مع حاكمهم . وإن انتشار الإسلام ليتحقق بسلاح العطف والمحبة خيرا مما يتحقق بسلاح الضغط والاضطهاد .

تجاهل النزاع والتخاصم بين الشيعة والسنة ، ففي هـــذا منبت الضعف في الإسلام ، وضم الرعايا من مختلف العقائد حول الأسس الأربعة بحيث يصبح كيان الدولة محصنا ضد عوامل الضعف المختلفة .

وتذكر أعمال حظرة تيمور صاحب قراني (صاحب سياسة الوفاق) حتى تبلغ الرشد في أمور الحكم ، وليس علينا إلا النصح .

غرة جمادى الأولى سنة ٩٣٥ ، ١١ يناير سنة ١٥٢٩ »(١) .

وصف بابر للهند

يعرض بابر في وصفه هذا الأحوال السياسية في الهند وقت غزوه لهـــا ، ويشير بوجه خاص إلى ما بها من حيوان ونبات ، وإلى ميزاتها الجغرافية ، ولكن آراءه عن السكان آراء ضعيفة كما يتضح من الفقرة التالية :

« هندستان بلد ليس به من المباهج التي يمكن أن نحصيها إلا القليل ، فأناسه ينقصهم الظرف ، وليس لديهم أي فكرة عن جمال الصداقة الاجتماعية ، أو

---

(١) أصل هذه الوثيقة مكتوب باللغة الفارسية ، ومحفوظ في المكتبة الحميدة Hamida Library في مدينة بهوبال Bhopal ، وقد نشرت هذه الوصية منذ مدة ولأول مرة في جريدة « القرن العشرين Twentieth Century » التي تصدر في مدينة الله آباد ، قام على نشرها ن.س. مهتا N. C. Mehta ومعها ترجمة انجليزية ، تحت رعاية صاحب السعادة نواب صاحب بهوبال Nowab Sahib of Bhopal ، ويلاحظ أن وصية بابر هذه تعتبر واحدة من جملة الفرمانات السلطانية التي كانت تصدر بين الحين والآخر عن سلاطين المغول في المناسبات المختلفة .

الاختلاط الصريح بين الأفراد بعضهم والبعض الآخر ، أو الألفة المتبادلة ، وليس فيهم نبوغ أو سعة فى التفكير أو أدب فى السلوك ، وليس من خلقهم العطف والود الإنسانى ، وتنقصهم البراعة والابتكار الميكانيكى عند التخطيط أو القيام بأعمالهم اليدوية ، وليس لديهم المعرفة أو الحذق فى التصميم أو العمارة .

ولا خيل عندهم أو لحم طيب أو أعناب أو بطيخ أو فاكهة طيبة ، أو ثلج أو ماء بارد ، ولا يوجد فى أسواقهم طعام أو خبز جيد ، وليس لديهم حمامات أو مدارس ، أو شموع أو مشاعل ، أو حتى شمعدانات .

وبدلا من الشمعة أو الشعلة ترى عصبة من الرجال القذرين الذين يسمونهم « ديفاتى Divatis » يمسكون فى أيديهم اليسرى نوعا من القوائم الخشبية الثلاثية الأرجل ، وفى جانب إحدى هذى الأرجل يثبتون قطعة من الحديد تشبه الجزء العلوى من الشمعدان ، وفى رجل ثانية يثبتون بمسمار حديدى فتيله لينة فى حجم الإصبع الوسطى ، ثم يمسكون فى اليد اليمنى قرعة بها ثقب يسكبون منه الزيت ليمر فى مجرى صغير ، وكلما احتاجت الفتيلة إلى زيت أمدوها به من هذه القرعة ، ويوجد فى العادة لدى عظماء الرجال مائة أو مائتان من هؤلاء الديفاتى » .

ويستمر بابر فى وصفه فيقول :

« إنه لا توجد فى الهند قناطر أو قنوات مائية ، ولا يتصف الهنود بالكياسة أو النظام ، حتى إن الفلاحين والعمال يتجولون عراة وليس عليهم ما يسمى باللانجوتى « Langoti » لستر العورة » .

ومع هذا فان بابر يتحدث بإعجاب عن ثروة الهند من الفضة والذهب ويقول إنه لم يكن بها عوز للعمل ، بل على العكس كانت فرص للعمل متوفرة ، وكانت التجارة مزدهرة ، وأن الجو كان لطيفا فى موسم الأمطار .

ولكن يجب أن نلاحظ أن الفترة التى عاشها بابر فى الهنـــد لم تكن كافية لتمكينه من التعرف على أخلاق الهنود الحقيقية ، وعلى عاداتهم وتقاليدهم وآرائهم ، لهذا يجب أن نأخذ آراءه عن الهند ـ وبوجه خاص ما قاله عن الشعب الهندى ـ بحرص شديد .

مذكرات بابر

هذه الفقرات مأخوذة عن سيرة بابر التى كتبها بنفسه ، وهذه السيرة تمدنا بأحسن وصف لمؤلفها ، وقد كتبت بأسلوب جميل معبر ، ولهذا فهى تحتل مكانة خاصة بين أجمل ما وصلنا إليه من كنوز الأدب التاريخى الهندى ، ولا زالت تنال تقديرا عالميا لسهولة تعبيرها ، ولسمو أسلوبها ، ولأصالة وصدق محتوياتها ، ولكن أحسن ما تمتاز به هذه السيرة هو الوضوح فى تصوير شخصية مؤلفها .

إنها ترسم صورة لبابر بألوانها الحقيقية ، فتعرضه أمام القارىء بفضائله ورذائله ، فهى لهذا تحتل بجدارة مكانها إلى جانب أحسن السير الشخصية التى كتبت فى العالم ، ولكنها تبقى فريدة بين ما كتب من سير شبيهة لها فى آسيا .

هذه السيرة تعرض لنا صور بابر ، ورجال دولته ومعاصريه فى ملابسهم ومظهرهم وأذواقهم ، ونضالهم ، وأخلاقهم وعاداتهم وهواياتهم كأحسن ما تكون الصور التى تعكسها المرآة المصقولة .

كما أنها تمدنا بوصف دقيق للبـــلاد التى زارها بابر ، ولمظاهرها الطبيعية وإنتاجها ، وأعمالها الفنية والصناعية .

وإلى هذا كله فإن سيرة بابر كما كتبها بنفسه تمتاز بما يتخللها من تعليقات المؤلف الحاذقة وانطباعاته الحية ، فهو كثيرا ما يستطرد عند ذكر الحوادث وهو فى استطراده يضفى على ذكرياته نكهة نفاذة نادرة المثال .

الفنون الجميلة :

كان بابر محبا للفنون الجميلة ، وبفضل رعايته وتشجيعه ازدهرت كثير من الفنون فى عهده ، مثل ، العمارة ، والشعر ، والتصوير ، والموسيقى والعناية بالحدائق ، وفن توضيح الكتب بالصور الملونة .

واقد عمل بابر بنفسه على ترقية هذه الفنون وشجع أولئك الذين كانوا يعنون بالمهن المشابهة . وكان بابر يتمتع بذوق جمالى رفيع ، وخير دليل على هذا أنه رغم حياته المناضلة العاصفة كان يجد الوقت الذى يخصصه لإشباع ميوله الفنية .

العمارة :

كانت لبابر عنـــاية كبيرة بالعمارة ، ولم تعجبه العمائر التى رآها فى دلهى وفى أجرا ، ولكنه أعجب كثيرا بالعمارة فى جواليور . وكان رأيه سيئا فى الفن الوطنى ومهارة الأهلين ولهذا فقد استحضر من القسطنطينية التلاميذ الموهوبين لسنان المهندس المعمارى المشهور ليصمموا له مبانيه التى تتفق مع ذوقه الجمالى .

لقد كتب فى مذكراته :

« فى أجرا وحدها ، ومن بين الحجارين فى هذا المكان وحده استخدمت فى كل يوم ابناء قصورى ٦٨٠ رجلا ، وفى أجرا وسكرى وبيـــاناه Bianah ودهولبور Dholpur وجواليور وكويل Koil كان يستخدم فى منشآتى كل يوم ١٤٩١ حجارا » .

غير أنه من المؤسف حقا أن كل منشآت بابر الجميلة قد اندثرت ولم يبق منها غير أثرين اثنين: مسجده الكبير فى كابل باغ Kabul Bagh فى بانيبات، والمسجد الجامع فى سامبهال Sambhal .

الشعر :

ولد بابر ليكون شاعرا ، ولهذا فقد عشق الشعر منذ شبابه الأول ، وقد ترك بابر ديوانا من شعر كتبه باللغة التركية نجد الكثير منـــه فى كتاب Tuzk-i-Babari .

ويروى أبو الفضل أن مجموعة من المثنويات الفارسية من إنشائه أسماها « مبين Mubin » ، وكانت كثيرة التداول فى أيامه . وإلى هذا ، فقد ألف بابر كتبا كثيرة ، من بينها كتاب فى العروض اسمه « المفصل » ، ويقول عنه مؤلف « تاريخى رشيدى Tarikh-i-Rashidi :

« لقد كان بابر فى إنشائه للشعر التركى ثانى اثنين بعد أمير على شير Amir ... لقد ابتكر نوعا من النظم يقال له « المبين » ، كما ألف رسالة مفيدة ... الفقه المبين كان يعمل بها غالبا ، وكتب رسالة فى العروض التركى تمتاز ... على غيرها ، ونظم الرسالة الوالدية » .

كان بابر ذا مزاج مرح ، ولهذا كان كثيراً ما يعقـــد مجالس « للمشاعرات Mushaeras » حيث يتبارى الشعراء فى ارتجال أو إلقاء الأشعار باللغتين الفارسية والتركية .

وفى مذكرات بابر إشارة إلى ندوة من رجال الأدب اجتمعت مرة فى قارب حيث أخذ بابر ورفقاؤه الأدباء فى إنشاد الأشعار للتسرية عن أنفسهم ، وكان تأثير هذه النزعة الأدبية الفكرية شديدا على نفس بابر وعقله ، لدرجة أنه أثناء معاركه كان يختلس بعض الوقت ليقضيه فى الإصغاء لإنشـــاد الشعراء ، أو لمناقشات الجهابذة من العلماء ، وكثيرا ما كان يدلى هو بدلوه مع الشعراء فينشد بيتا أو بيتين من الشعر ليسهم مع المجتمعين فى سرورهم .

التصوير :

وكان بابر ذواقة لفن التصوير ، ويقال إنه أحضر معه إلى الهند مختارة من الصور الفنية التي جمعها من مكتبة أسلافه التيموريين ، وقد نقل بعض هذه الصور فيما بعد إلى إيران « نادر شاه » بعد غزوه الهند واستيلائه على مدينة دلهى . ولكن هذه الصور كانت إبان وجودها فى الهند ذات تأثير قوى على فن التصوير هناك .

الموسيقى :

وعنى بابر كذلك بالموسيقى عناية خاصة فقد كان عليما بأصولها ، وخير دليل على هذا تلك الرسالة الصغيرة التي كتبها عن الموسيقى ، فإن ما بها من معلومات وثيقة يدل على أن بابر كان محبا للموسيقى عارفا بأصولها الفنية .

فن توضيح الكتب بالصور :

كان بابر أول من أدخل فن توضيح الكتب بالصور إلى الهند ، وإن مذكراته لتقدم لنا خير نموذج لهذا الفن ، فإنهـــا مليئة بالصور الإيضاحية الملونة التى تضفى على الكتاب رواء وجمالا فائقين ، وخاصة تلك الصور الملونة الرائعة للحيوانات التي ورد ذكرها فى الكتاب .

فن تنسيق الحدائق :

وكان بابر من عشاق الحدائق ، وفى مذكراته إشارات كثير للأزهار والرياحين النضرة ، ومن بين الحدائق الجميلة التى أنشأها حديقة باغى وفا Bagh-i-Wafa وحديقة باغى كيلان Bagh-i-Kilan بالقرب من كابل ، وحديقتا : رام باغ Ram Bagh وزهرة باغ Zohra Bagh فى أجرا .

ومن المؤسف حقا أن كثيرا من هذه الحدائق قد انقلبت إلى أرض زراعية ،

ومع هذا لايزال هناك عدد منها يشهد على ما كان يتمتع به منشؤوها من أباطرة المغول من ذوق فنى رفيع .

فلقد كانت هذه الحدائق بما تضمه من أزهار جميلة وطيور رائعة وحيوانات طريفة والجم الغفير من الحور والولدان تمثل عظمة المغول خير تمثيل .

الشهرة الأدبية :

كان بلاط بابر يضج بعدد كبير من العلماء الأفذاذ والأدباء الممتازين ، نذكر منهم :

غياث الدين محمد خدامير Khudamir المؤرخ الفارسى المشهور ومؤلف كتاب « حبيب السير » وكتاب « خلاصة الأخبار » ، وغيرهما من الكتب الكثيرة الأخرى .

ومولانا شهاب الدين الشاعر ومؤلف الألغاز والكاتب الفكاهى المشهور .

ومير إبراهيم أحد أبناء مدينة هرات ولاعب القانون الماهر .

أما العلماء المقربون إلى بابر فكان من بينهم رائده الخاص الشيخ مازى Mazi ، والشيخ زين خافى Zain Khafi مترجم كتاب « واقعات بابرى Waqiyat -i-Babari » ، ومولانا باقى ، وهو واحد من كبار علماء عصره .

ويجب أن نشير كذلك إلى ذلك العلامة وزير ملك هرات ، فقد كان يساعد بابر مساعدة لها قيمتها فى جميع أعماله الأدبية ، وهذا الوزير كان أمينا على مكتبة ضخمة تضم عدداً كبيرا من الكتب القيمة التى عنى بجمعها ملك هرات .

الرأى فى بابر

ولا نستطيع أن نختتم القول عن بابر بما هو خـــير مما قاله المؤرخ « ستانلى لين بول » ، فقد قال عند تقديره لأعمال بابر :

« إن مكان بابر الخالد فى التاريخ يرتكز على غزواته فى الهند التى مهدت الطريق لقيـــام إمبراطورية تولى حكمها عدد من نسله أكثر مما ترتكز على مخاطراته الجريئة وجهوده التى بذلها فى السنوات الأولى من حياته ، أو على مذكراته الطريفة التى روى فيها أخبار هذه المخاطرات والجهود .

ومع أن بابر كان جنديا مغامرا ، فقد كان كذلك أديبا ذواقة ذا بصيرة نفاذة نقادة .

كان بابر شاعراً مجيداً فى اللغة الفارسية ، لغة الثقافة فى ذلك العصر ، كما كان يملك ناصية لغته القومية ، اللغة التركية ، فكان أسلوبه فيها - نظما ونثرا - أسلوبا نقيا خالصا من الشوائب .

وكان الأمراء الأتراك فى عصره يفتخرون بثقافتهم الأدبية ، فكان الواحد منهم يطمح أن يتفوق فى مطاردة غزال ظريف ، أو نسخ كتاب بخط جميل ، ولم تكن هذه الأعمال عندهم أقل قيمة من المهارة فى حمل السيف أو الضرب بالرمح ، فالفطنة والمعرفة والقدرة على ارتجال رباعية من رباعيات الشعر ، أو الاستشهاد بالآداب الفارسية القديمة ، أو الخط الحسن ، أو ترديد أغنية جميلة ، كل هذه الأشياء كانت تقدر فى عصر بابر تقديراً خاصا لا يقل عن تقدير القوم للجرأة والشجاعة أو الفضيلة .

وكثيرا ما كان بابر نفسه يقطع حديثه أو روايته لبعض القصص ليستشهد ببيت من الشعر ، كما كان يلتمس بعض الوقت خلال متاعبه والأخطار المحيقة به

ليقضيه فى نظم قصيدة يشكو فيها الخطوب التى أصابته ، والحقيقة أن بابر استطاع أن يصور حروبه ومباذله تصويراً إنسانياً فى نفثات شعره » .

ويستطرد لين بول فى وصفه وتقديره لمواهب بابر قائلا :

« وفى الجملة لو أننا استعرضنا تاريخ آسيا ونظرنا إليه نظرة غير متحيزة فإننا نجد أن عددا قليلا من الأمراء يستطيع أن يتطاول إلى مكانة أرفع من مكانة بابر فى عبقريته وثقافته ، وإن كان من الجائز أن يرتقى حفيده أكبر مكانة أعلى من مكانته فى سياسته الحازمة السمحة ، إن مواهب جنكيزخان وتيمورلنك تقف بهما عند غزواتها وحروبهما الرائعة ، وهما يبزان بابر دون شك فى هذا الميدان ، أما فى النشاط الفكرى ، ورباطة الجأش ، والروح التى لا تفقد اتزانها فى السراء والضراء ، والتحلى بالفضائل الاجتماعية فإننا قل أن نجد شبيها لبابر بين الأمراء ، ونحن لا نستطيع كذلك أن نجد أميرا آسيويا آخر يقارب بابر فى حبه للآداب ورعايته لها وعمله على نشرها » .

قبر بابر ــ مدینه کابل

الفصل الثانى

ناصر الدين محمـــد همايون

(١٥٣٠ — ١٥٣٩ ثم ١٥٥٦)

تقدمة :

قبل نهاية سنة ١٥٣٠ بيومين اثنين ارتقى همايون عرش أبيه ، وأقيمت الأفراح فى كل مكان احتفالا بتوليته ، ولقب منذ ذلك اليوم بناصر الدين محمد همايون .

ولم يقدر لهذا الملك الجديد أن ينعم بملك مستقر هادىء ، وقد يرجع هذا من ناحية إلى أنه هو شخصيا كان يعمل أحيانا على خلق المتاعب ، وإلى أنه من ناحية أخرى لم يكن ندآ لمنافسه شيرشاه Sher Shah فى السياسة وفن الحكم .

تقسيم الامبراطورية :

ولقد حرص همايون على اتباع نصائح والده ، فعين أخوته حكاما على الأقاليم المختلفة .

فولى أخاه كامران Kamran حاكما على كابل وقندهار .

وأخاه ميرزا هنـــدال Mirza Hindal حاكما على ألوار وموات Alwar and Mewat .

وأخاه ميرزا عسكرى Mirza Askari حاكما على سامبهال Sambhal .

كما عين ابن عمه ميرزا سليمان Mirza Sulaiman حاكما على بدخشان Badakhshan .

غير أننا نلاحظ أن هذا التقسيم كان السبب الأكبر فى ظهور الدسائس والمؤامرات التى قام بها هؤلاء الأخوة فيما بعد ، والتى أدت إلى إضعاف الإمبراطورية المغولية فى الهند .

الحالة السياسية فى الهند وموقف همايون :

لم يطل العمر ببابر - كما سبق أن أسلفنا - ليتمكن من تقوية هذا الملك الذى أقامه ، ولم يكن همايون من القوة والذكاء بحيث يستطيع أن ينجز ما لم يستطع أبوه إنجازه ، بل إنه على العكس أضاف إلى متاعبه متاعب جديدة ، فقد كان من عيوبه اللين والتناقض .

كانت أحوال الهند السياسية عند تولى همايون سيئة . فقد كان هناك فى الشرق والغرب من يدبر الأمر للقضاء على حكم المغول . فنى الشرق ، فى البنغال وبهار ، كان يوجد شيرشاه أفغان Sher Shah Afghan ؛ وفى الغرب ، فى جوجرات Gujarat كان يوجد بهادر شاه Bahadur Shah .

كذلك كان أخوة همايون من القوة بحيث يستطيعون أن يتطلعوا لعرش أبيهم ، أما الأمراء وكبار القواد الذين كان همايون قد منحهم الإقطاعات الكبيرة فقد كانوا يملكون حينذاك عصب الحرب وأسلحتها . وقد استخدموها فعلا فى حروبهم المتبادلة ، بل وضد إمبراطورهم همايون نفسه ، ولم تنقطع مؤامراتهم ولم تمتنع دسائسهم ضده فى سبيل أن يدفعوا رجالهم هم إلى الأمام . وقد ائتمر ضده واحد من هؤلاء القواد يدعى محمد زمان ، ولو نجح فى مؤامراته لتغير تاريخ المغول ، ولكن سر المؤامرة كشف ، والتجأ محمد زمان إلى جوجرات حيث انضم إلى بهادر شاه .

كذلك تطلع إلى عرش المغول علاء الدين لودى ، أخو السلطان إبراهيم

لودى ، وأرسل جيشا قوامه ٥٠٠٠٠ جندى يقوده ابنه تاتارخان Tatar Khan لمحاربة همايون ، وتقابل الفريقان فى بياناه Bianah ، ولكن تاتار هزم وقتل .

كامران Kamran يستولى على البنجاب :

عهد كامران بالحكم فى كابل وقندهار لأخيه عسكرى ، ثم خرج على رأس جيش كبير لمقابلة همايون ، مدعيا أنه إنما خرج لتهنئته بمناسبة توليه العرش ، غير أن همايون لم يكن من السذاجة بحيث تخدعه هذه الحيلة ، فأسرع وأرسل إلى أخيه رسولا ينبئه أنه قد أصدر قرارا بضم لمغان Lamghan وبشاور Peshawar لمقاطعته فى كابل .

ولكن كامران لم يقنع بهذه الترضية ، وعبر نهر السند ، واستولى على إقليم البنجاب وضمه إلى ملكه فى كابل وقندهار .

أما همايون فقد آثر السلامة واستسلم للأمر الواقع وتحاشى أن يدخل فى حرب ضد أخيه ، ولكنه كان - فى هذا - مخطئا خطأ جسيما ، فان الاستيلاء على البنجاب بوجه عام ، وعلى حصار فيروزا Hissar Firoza بوجه خاص ، كان ضربة قاصمة ، وذلك لأن ضياع البنجاب لم يفقده إقليما من أخصب الأقاليم وأغناها وحسب ، بل أقام حاجزا بينه وبين مركز المغول الحربى فى شمال الهند الغربى ، وهو مركز غنى غنى كبيرا بالإمكانيات الحربية . كما أن الاستيلاء على حصار فيروزا Hissar Firoza جعل لكمران السيطرة على الطريق الحربى الجديد الذى يربط بين دلهى وقندهار ، وأصبح من اليسير عليه أن يقطع السبيل على قوى همايون الحربية .

القتال مع بهادر شاه فى جوجرات :

وسرعان ما استدعى همايون لمواجهة بهادر شاه أحد أعدائه الخطرين . كانت جوجرات من أغنى أقاليم الهند وأكثرها قوة ، وكان حاكمها رجلا شديد

الطموح ، وتحت يده موارد مالية ضخمة ، وقد عمل ـ قبل اشتباكه مع همايون ـ على تقوية جيشه وزيادة عدد فرسانه ، وكان قد استولى على مالوا Malwa بمساعدة رانا موار Rana of Mewar ، كما دان بالولاء ملوك أحمد نجار Ahmadnagar وخاندش Khandesh وبرار Berar ، واعترف البرتغاليون بسيادته ، ثم بدأ بعد ذلك يعد العدة لجولة أكبر وأخطر ، لغزو هندستان كلها . فألحق بجيشه رؤساء الأفغان وأمراء المغول الذين كانوا لجأوا إلى مملكته واتخذوها مأوى لهم ، والذين كانوا قد اشتركوا فى رسم الخطة للاستيلاء على الهند مع الإمبراطور المغولى بابر .

وخرج همايون لملاقاته ومعاقبته على السماح بإيواء أعدائه ، وقد أساء بهادر شاه تقدير المقدرة الحربية التى يمتاز بها منافسه ، وحاول أن يقلد الأساليب الحربية التى استخدمها بابر فى معركة بانيبات ، وتوقع أن يكرر منافسه الخطأ الذى ارتكبه من قبل إبراهيم لودى بأن يدفع بجيوشه لمقابلة مدفعيته .

ولكن همايون كان قد اكتسب خبرة كبيرة بفنون الحرب أثناء قتاله كجندى فى جيش أبيه ، ولهذا لم يقع فى الفخ الذى أعد له ، بل على العكس أرسل فرقا من فرسانه لتستولى على غلات الأقاليم المتصلة بمؤخرة جيش عدوه بهادر شاه ، واتمنع عنه الإمدادات .

وكانت النتيجة أن اشتد الحصار بسكان جوجرات وانتشرت بينهم المجاعات ، واضطر بهادر شاه أن يفر مع نفر من أتباعه المخلصين بعد أن حطم مدافعه ، وطارده همايون من مكان إلى مكان إلى أن لجأ أخيرا إلى البرتغاليين فى ديو Diu .

وضم همايون إليه جزءاً كبيراً من جوجرات ومالوا Malwa ، ولكن النصر أعماه هو وأصحابه ، فلم يتخذوا الإجراءات الجدية للإقامة الدائمة فى

هذه الأقاليم المفتوحة . بل انصرفوا إلى إقامة الأفراح والاحتفالات .

واستفاد بهادر شاه من هذا الإهمال ، وبدأ فى الحال بمراسلة قائده المخلص عماد الملك ، الذى أسرع باحتلال أحمد أباد ، وكون لسيده جيشا كبيراً ، وفى نفس الوقت كان البرتغاليون قد وعدوا بتقديم المساعدة لبهادر شاه . كل هذه الإجراءات أيقظت همايون من غفوته ، وأشاعت الرعب فى نفسه ، فتقدم فى الحال لملاقاة عماد الملك ، وانتصر عليه .

وحسب همايون أن الأمور قد استقرت فى جوجرات ، فعهد بالحكم فيها إلى أخيه عسكرى ، وتقدم هو لملاقاة شيرشاه أفغان الذى كان يقود ثورة خطيرة فى إقليم بهادر .

وقد أثبت عسكرى ـ أثناء غياب أخيه ـ عجزه التام ، وكرهه قواد جيشه لصلفه وغلظته . وكان بهادر شاه يترقب هذه الفرصة ، فتقدم فى الحال لمهاجمة أحمد أباد واستولى عليها ، وسرعان ما استعاد ملكه المفقود شيئا فشيئا ، ولكنه لم يقدر له أن يجنى ثمار انتصاراته ، فقد مات غريقاً فى سنة ١٥٣٧ .

القتال مع شير شاه أفغان :

عندما اقتربت جيوش همايون من حدود البنغال أسرع الأفغانى المحاتل بالانسحاب نحو بهار ، وفى غيابه استولى المغول على مدينة جور Gaur عاصمة الإقليم وسموها جنة آباد Jannatabad .

ومرة ثانية عندما استولى شيرخان على ممتلكات المغول فى بهار وجونبور Jaunpur تحركت جيوش همايون لإيقافه عند حده ، وعبر همايون بجيوشه نهر الجانج Ganges واتجه نحو بهار ، ولكنه هزم عند تشوسا Chausa واضطر إلى الفرار .

وفى هذا الموقف الحرج التمس مساعدة أخوته الذين سبق له أن أكرمهم غاية الإكرام ، ولكنهم لم يرفضوا معاونته وحسب ، بل أسهموا فى العمل على نجاح عدوه بعرقلة الاستعدادات التى كان يتخذها .

وقد توج شيرخان نفسه ملكا بعد انتصاره فى تشوسا Ghausa واتخذ لقب شيرشاه ، ثم عبر نهر الجانج وأنزل بهمايون هزيمة شنعاء عند مدينة كانوج Kanauj ، ثم طرده من الهند .

همايون فى المنفى :

إن قلم القاص أقدر من قلم المؤرخ على تصوير فرار همايون من الهند ، وما أصابه من بلايا بعد هذا الفرار ، فإنه بعد هزيمته فى كانوج عبر نهر الجانج ووصل إلى أجرا ، ثم إلى سرهند Sarhind ، أما أخوته الذين نالوا الكثير من خيره فيما مضى فقد امتنعوا عن مساعدته أو حمايته ، بل لقد زادوا فى متاعبه وضاعفوا إزعاجه .

تقدم همايون نحو السند وحاصر بهكار Bhakkar ، ولكنه لم يستطع الاستيلاء عليها . وفى هذا الوقت تزوج همايون من البيجوم حميده بانو Hamida Bano Bagum ابنة الشيخ على أكبر جامى .

وتملك همايون اليأس فلجأ إلى مالدفا Maldeva ، راجا جودهبور Rajah of Jodhpur ، فوعده أن يمده بجيش يتكون من عشرين ألفا من الراجبوت Rajputs ، ولكنه لم يكد يقترب من حدود ملكه حتى أدرك أن هذا الراجا يضمر له شرا .

وأخيرا حاول همايون أن يجد ملاذا فى أمركوت Amarkot حيث استقبله

رانا براساد Rana Prasad استقبالا حافلا ، ووافق أن يساعده على مهاجمة تتا Thatta وبهكار Bhakkar .

وفى هذا المأوى وضعت إمبراطورة الهنــــد المستقبلة أعظم أباطرة الهند «أكبر» ، وبعد أن احتفل همايون بهذه المناسبة السعيدة تقدم لمهاجمة بهكار يساعده رانا براساد Rana Prasad . غير أنه اسوء الطالع نشب خلاف فى ذلك الوقت بين المسلمين والراجبوت ، وكان من نتيجته أن انسحب الراجبوت من جيش همايون ، ولم ينقذ الموقف إلا أن أمير بهكار سئم من طول القتال فطلب إيقافه ؛ وكان من شروط الاتفاقية التى عقدت بينهما أن قدم لهمايون ثلاثين قاربا ، وعشرة آلاف مثقال ، وألفى حمل من الغلة ، وثلاثمائة جمل .

وتقدم همايون بهــــذه المعدات قاصدا إلى قندهار ، ولكن قندهار لم تكن بالمدينة التى تصلح لإقامته فقد كانت محفوفة بالأخطار ، وذلك لأن أخاه كامران كان السيد الوحيد لبلاد الأفغان ، وكان الأخوان الآخران : عسكرى وهندال قبلين تابعين له .

وبدأ همايون يفكر ثانية فى البحث عن ملجأ آخر يأوى إليه ، وأخيرا ترك طفله الصغير أكبر ـ وكان قد حال عليه الحول ـ فى مدينة قندهار ، وتقدم قاصدا إيران بعد أن كتب إلى الشاه ينبئه بعزمه على زيارته .

همايون فى بلاد فارس :

وعندما علم طهماسب Tahmasp ـ شاه فارس ـ بنبأ هذه الزيارة ، أصدر أوامره إلى قواده أن يستقبلوا همايون عند وصوله استقبالا ملكيا يليق بمكانه . ويقال إنه كان يهدف من وراء هذا الاستقبال الحافل إلى أن يغرى ضيفه بالتحول عن المذهب السنى إلى المذهب الشيعى ، وقد أبدى همايون امتعاضه من هـــذا

العرض أول الأمر ، ولكنه استمع أخيرا لنصيحة مستشاريه وقبل أن يغير مذهبه ، فوعده الشاه بالمساعدة وأن يزوده بجيش يعينه على غزو كابل وقندهار وبخارى .

همايون يستعيد كابل وقندهار من أخيه كمران :

وتقدم همايون على رأس جيش يتكون من ١٤٫٠٠٠ جندى لمهاجمة مملكة أخيه كمران ، فاستولى على قندهار ، ثم هزم أخاه كمران عند كابل ؛ وبعد هذه الهزيمة قتل ميرزا هندال . أما كمران فقد فر ولجأ إلى بلاط السلطان سليم شاه ، ولكنه لم يجد لديه ترحيبا ، فلجأ مرة ثانية إلى مملكة جاخار Gakhar ؛ ولكن رئيس الجاخار عامله معاملة غير رحيمة ، ثم أسلمه إلى أخيه همايون .

وتذكر همايون وصايا والده فأشفق على أخيه ولم يقتله ، ولكنه سمل عينيه حتى لا يتمكن من إثارة المتاعب ضده فى المستقبل ، وإجابة لرغبته أرسل بعد ذلك إلى مكة فى صحبة زوجته التى ابثت ترعاه وتخدمه بإخلاص إلى آخر يوم من أيام حياته .

وتمكن همايون كذلك من القبض على أخيه الثالث ميرزا عسكرى وسمح له بالرحيل إلى مكة .

وهكذا استطاع همايون أن يقضى نهائيا على المتاعب التى أثارها أخوته ، ثم بدأ يعد العدة بعد ذلك لاستعادة ملكه فى الهند .

عودة همايون الى ملكه فى الهند :

وكان همايون يرقب الأحداث التى تجرى فى الهند ، ويترقب الفرص للعودة إليها ، وفى سنة ١٥٥٥ استجاب لدعوة بعض ذوى النفوذ من الهنود ؛ وخرج على رأس جيش كبير واستولى على لاهور دون مقـــاومة . وكان سكندرسور

Sikandar Sur قد عبث بأموال الدولة ، فتقدم لمقاومة همايون ، ولكنه هزم هزيمة شنعاء وفر هاربا .

ودخل همايون ثانية إلى عاصمته القديمة دلهى فى احتفالات بهيجة ، وحكم امبراطوريته الهندية مدة يسيرة بعد ذلك لا تتجاوز الإثنى عشر شهرا ، وفى الرابع والعشرين من يناير ١٥٥٦ سقط همايون من شرفة مكتبته فأصيب ، وكانت هذه الإصابة سببا فى وفاته .

مآثر همايون :

كان همايون يتمتع بذاكرة قوية ، ولهذا فقد أحرز تفوقا ملموسا فى كثير من الفنون والعلوم فى شبابه الأول ؛ فهو على سبيل المثال كان محبا للشعر ، كما كان شاعرا ممتازا ، وله أشعار تمتاز بالبلاغة وقوة التعبير .

وكان همايون بارعا فى علم الفلك ، وعالما من علماء الجغرافيا ، وألف جملة من الرسائل عن طبيعة العناصر ، وبعد توليه عرش الهند أمر العلماء بعمل كرات فلكية وكرات أرضية .

ويقول فرشتا Ferishta إنه أنشأ سبع قاعات للاستقبال ، وسماها بأسماء الكواكب السبعة :

فالقضاة والسفراء والشعراء والرحالة كانوا يستقبلون فى قاعة القمر .

والقواد ورجال الجيش كانوا يستقبلون فى قاعة المريخ .

والرؤساء المدنيون كانوا يستقبلون فى قصر عطارد .

ورجال الأدب كانوا يستقبلون فى قصور زحل والمشترى .

والموسيقيون والمنشدون كانوا يستقبلون فى قاعة الزهرة Venus .

وقال صاحب « تاريخى رشيدى Tarikh-i-Rashidi » :

« إننى لم أر إلا قلة من الأمراء الذين يتمتعون بما يتمتع به همايون من مواهب طبيعية » .

ويقول مؤرخ هندى آخر :

« كانت طبيعته الطبيعـة النبيلة يتمثل فيها مزيج من نشاط الاسكندر وعلم أرسطو » .

الأعمال البارزة :

وفى عهد همايون اشتهر البلاط المغولى بالجلال والفخامة ، وإلى همايون يرجع الفضل فى ابتداع بعض المبتكرات ، فقد كان تجاروه يعملون على تنفيذ تعليماته حين أنشأوا له أربعة قوارب وأنزلوها فى نهر جمنه Jumna .

كان كل قارب منها يعلوه قوس ، وطبقتان من طبقات هذا القوس تعلوان فى الجـو علوا كبيراً ، وإذا وضعت القوارب معا بحيث تصبح الأقواس متقابلة تتكون منها نافورة مثمنة تثير إعجاب الناظرين .

وكانت هذه القوارب مزودة بالأسواق والحوانيت ، وكثيراً ما كان الإمبراطور يبحر فيها مع خاصته من فيروز أباد دلهى إلى أجرا ، وبذلك كان يتحرك على نهر جمنة سوق عائم يستطيع أن يجد فيه الإنسان كل مايشتهى ، كذلك أقام بستانيو القصر لمليكهم حديقة عائمة على سطح نهر جمنة .

ولكن أعجب أعمال همايون الإبداعية كان القصر المتحرك ذا الطبـاق الثلاث . كانت أجزاء هذا القصر المصنوعة من الخشب تركب بمهارة فائقة حتى لتبدو وكأنها قطعة واحدة غير مفصلة الأجزاء ، ولكنها كانت تفك إلى أجزاء عند اللزوم ، وكانت السلالم المؤدية إلى الطابق العلوى مصنوعة بمهارة فائقة بحيث كان من اليسير تطبيقها أو فكها .

ومن منشآت همايون كذلك جسر متحرك لم يكن أقل عجبا من هذا القصر أو تلك القوارب .

الإدارة :

انتظم إدارة مملكة قسم همايون حكومته إلى أربعـــة أقسام تبعا للعناصر الأربعة :

آتش Atish (النار) ، وباد Bad (الهواء) وآب Ab (الماء)، وخاك Khak (الأرض) . وعين وزيرا خاصا للإشراف على كل قسم من هذه الأقسام .

فأعمال المدفعية وتنظيمات الأسلحة وكل ما يتصل بالنـار كان يكون إدارة منفصـــلة تسمى Sarkar - i - Atishi يشرف عليها خواجـــه عبد الملك Khawajah Abdul Malik

وأعمال الاصطبلات Karqiraq Khana (godown) والمطبخ Bawarchi Khana واصطبلات الجمال Shutar Khana وغيرها كانت تـكون إدارة اسمها ساركارىهوائى Sarkar - i - Hawai ، ويشرف عليها خواجه لطف الله .

وأعمال شربات خاناه Sharbat Khana ، والحواصل Mastuchi Khana ، وإنشاء الترع ، وكل الأعمال المتصله بالمـاء كانت تجمعها إدارة واحدة تسمى « الإدارة المائية Sarkar - i - Abi » ، ويشرف عليها خواجه حسن .

وشؤون الزراعة والمباني والإشراف على أراضي الخـاصة الملكية والقصور كانت تـكون الإدارة الرابعة وتسمى « الإدارة الأرضية Sarkar -i- Khaki » ويشرف عليها خواجه جلال الدين مرزابك .

طبل العدالة :

عنى همايون عناية خاصة بنشر العدالة فى كل مكان ، فأوجد مايسمى بطبل العدل « Tabl -i- 'Adl » ، ووضع له نظام يقضى بأن يدق صاحب الشكوى هذا الطبل مرة واحدة إذا كان يشكو من عداوة عدو ، وأن يدقه دقتين إذا كان قد أخطأه

الإنصاف ، وأن يدقه ثلاث دقات إذا كان قد سرق منه شيء ، وأن يدقه أربع دقات إذا كانت الحادثة حادثة قتل .

وقد يكون من الملاحظ أن هذا الطبل لم يكن يستعمل كثيرا ، ولكن فكرة إنشائه تدل على شعور الإمبراطور بالعدل وعنايته بنشره واستتبابه .

تصنيف الشعب :

وقد صنف همايون سكان مملكته تصنيفا دقيقا ، وأقام نظاماً محكما للطبقات ، وأنشأ القصور لاستقبالهم ، وحدد أياما خاصة لمقابلة كل طبقة من طبقات الشعب .

وكانت الطبقة الأولى هى طبقة أهل السعادة Ahl-i-S'adat وتشمل الفقهاء والأتقياء وعلماء الدولة .

أما الطبقة الثانية ، طبقة أهل الدولة Ahl-i-Daulat من سراة القوم ، فكانت تشمل أقارب السلطان ووزراءه والنبلاء وقواد الجيش .

والطبقة الثالثة ، طبقة أهل المراد Ahl-i-Murad ، فكانت تشمل الموسيقيين والمغنين ورواة القصص (الشعراء) وأهل الفن والذوق ، وإذ كان أهل هذه الطبقة يعتمدون فى حياتهم على الهبات التى يمنحهم إياها السلطان فقد كان من الواجب أن يسموا « أهل الطرب » ، فقد كانت مهمتهم إدخال السرور على نفس السلطان عن طريق الأغانى والموسيقى والجمال .

وكان رئيس كل طائفة من هذه الطوائف يمنح سهما علامة على تشريفه ، ويخبرنا المؤرخ المعاصر خوداميـر Khudamir أنه فى وقت خدمته منح سهم السعادة لمولانا محمد فرغلى ممثل أهل السعادة ، وكان من اختصاصه تحديد الرواتب والمنح التى تعطى للأشراف والشيوخ والفقهاء والزهاد والمدرسين وطلاب العلم ، ووكل إليه حق تعيينهم وفصلهم .

وأعطى سهم الدولة الأمير هندوبك Amir Hindu Beg ، وعهد إليه بتنظيم شؤون أهل الدولة ، وكان من واجبه تحديد المرتبات ورتب الأجناد وموظفى الدولة .

وأعطى سهم المراد إلى أمير ديساى Amir Desai ، وكانت كل واجباته تنحصر فى الإشراف على شؤون أهل المراد ، وتوفير الحاجات الضرورية التى تضفى على البلاط المغولى مظاهر العظمة والفخامة .

تحديد مواعيد التشريفات

وقد قسمت هذه الطبقات الثلاث الكبرى إلى اثنتى عشرة طبقة صغرى ، وكانت تفرق عليهم سهام أخرى من ذهب مخلوط بنسب مختلفة من المعادن الأخرى وذلك تبعاً لأهميتهم .

فالسهم الأول ، وذهبه أكثر نقاء من غيره من السهام ، وكان يعطى إلى السلطان ، للدلالة على سمو مكانته .

والسهم الثانى كان يعطى للأسرة الملكية وحكام الأقاليم وكبار الموظفين .

والسهم الثالث كان يعطى لرجال القلم ورجال الدين .

والسهم الرابع كان يعطى للملوك والأمراء والنبلاء .

والسهم الخامس كان يعطى لرجال البلاط وموظفى السلطان الخصوصيين .

والسهم السادس كان يعطى للموظفين العموميين .

والسهم السابع كان يعطى لحريم السلطان وجوارى القصر ممن حسن سلوكهن .

والسهم الثامن كان يعطى للجوارى اللاتى يخدمن الحريم السلطانى .

والسهم التاسع كان يعطى لموظفى الخزانة والمكوس والخراج .

والسهم العاشر كان يعطى للطبقة المحاربة من ضباط وصف ضباط الجيش السلطانى .

والسهم الحادى عشر كان يعطى لصغار الخدم .

والسهم الثانى عشر كان يعطى لحراس القصر وحداة الإبل ومن يشبههم .

فقهاء البلاط :

هذا التنظيم يعطى فكرة واضحة عن همايون كأمير عظيم يعنى برفاهية رعاياه ، كما أنه يبين المكانة الرفيعة التى رفع إليها همايون العلماء والزهاد والموسيقيين والشعراء .

وقد كان خدامير مؤلف « حبيب السير » واحدا من الأدباء المقربين لهمايون . وكذلك كان جوهر ـ مؤلف « تذكرة الواقعات همايون «Tazkirat ul-Waqyat Humayon» ـ أو « مذكرات همايون الخاصة » ـ جابسه الخاص ، وبذلك كانت لديه الفرص الكافية لملاحظة كل ما أثبته فى كتابه هذا .

والعلامة عبد اللطيف مؤلف « لب التواريخ » كان قد أرسل همايون يدعوه لينضم إلى بلاطه ، ولكنه لم يدرك السلطان فى حياته بل وصل بعد وفاته .

وممن حظى بعطف همايون ورعايته الشاعر شهاب الدين خافى ـ صاحب الأشعار التى لا تبارى فى الألغاز والتأريخ ـ ، والشيخ حسين المدرس بإحدى مدارس دلهى الكبرى .

حب همايون للمكتبات

وكان همايون محبا للكتب والمكتبات ، فقد جمع فى مكتبته الملكية عددا ضخما من الكتب ، وفى حكمه الثانى أصـــدر فرمانا بتحويل « شير مندل Sher Mandal » ـ وهى الدار التى كان يقضى فيهـــا شيرشاه سورى Sher Shah Suri أوقات سمره وسروره ـ إلى مكتبة ، وكان همايون شغفا الشغف كله بالاطلاع على أحسن المؤلفات فى عصره ، حتى إنه كان يصحب معه أثناء

خروجه للقتال نخبة مختارة من الكتب لاستعماله الخاص ، ورغم انشغاله الدائم بقتال أعدائه فقد كان يخصص جزءا من وقته للقراءة والدراسة .

ويخبرنا الكونت نوير Count Noer أن همايون - حتى فى وقت فراره من الهند - قد صحب معه الكثير من كتبه المختارة وأمين مكتبته لالابك Lala Beg وكان لقبه الرسمى باذبهادر Baz Bahadur .

تقدم التعليم

وكان من البديهى أن يعنى ملك مثقف كهمايون بنشر التعليم بين رعاياه ، ومن المعروف أنه أنشأ فى دلهى مدرسة كبيرة ، وكان مدرس هـــذه المدرسة الشيخ حسين من أكبر علماء عصره .

ويبدو أيضا أن ضريح همايون الفخم — وهو أحد الآثار المغولية الجميلة القائم بالقرب من دلهى - كان يستخدم كمكان للتعليم ، وكان يعين الفقهاء الممتازون وكبار الرجال للإشراف عليه .

الحدائق :

كان همايون يشبه أباه فى حبه للحدائق ، ومع أن نضاله الطويل مع شيرشاه سورى لم يتح له الفرصة لإشباع هوايته الفنية هذه ، فقد امتاز عهده بإنشاء حديقة جميلة رائعة ، هى تلك الحديقة المتصلة بضريحه ، والتى لا تزال حتى اليوم آية من آيات الجمال والروعة .

عقيدة همايون الدينية

كان همايون رجلا متدينا حريصا على القيام بشعائر دينه كمسلم صادق الإسلام ، ويشير مؤرخوه إلى أنه كان سنيا مخلصا فى سنيته ، ولكن حبه العميق واحترامه الشديد لأهل البيت يدل على أنه كان ذا ميول شيعية ، ويؤيد هذا أن الأداة الحكومية فى عصره كانت فى معظمها فى أيدى رجال شيعي المذهب .

ضريح همايون فى دلهى

همايون فى الميزان
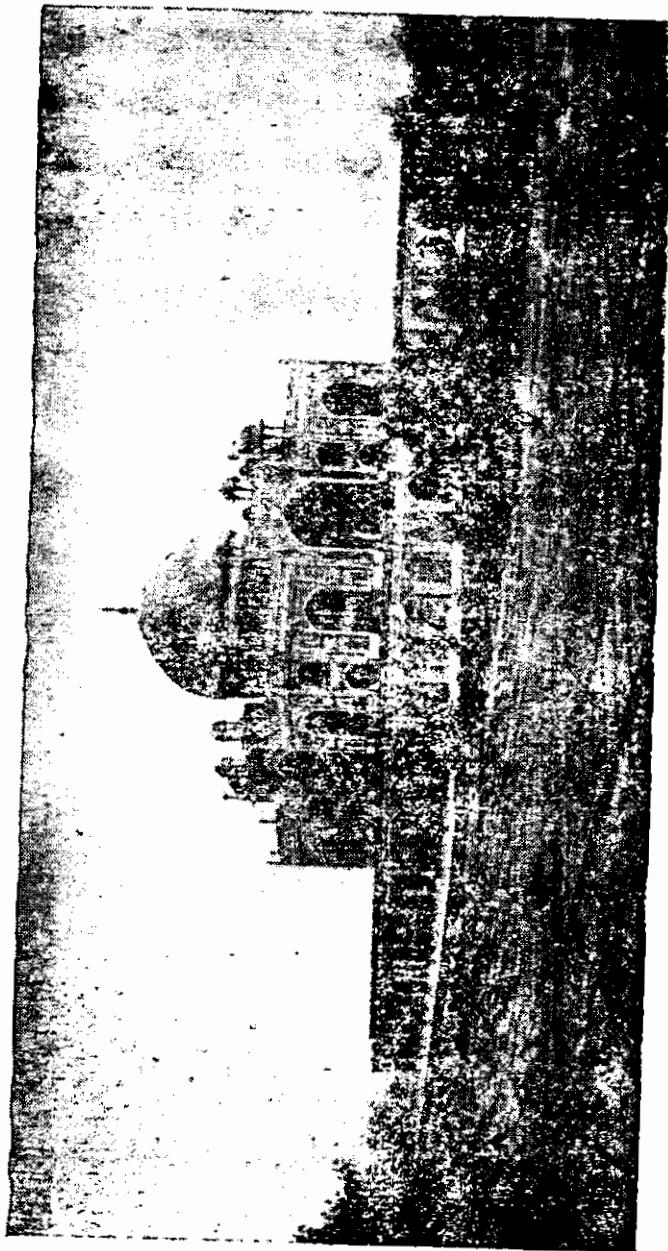
كان همايون فى حياته الخاصة صديقاً مرحاً مبتهجاً . وفى معسكره كان رفيقاً طيباً لجنده وموظفى دولته ، وفى إيجاز نستطيع أن نقول إنه كان صديقاً مخلصاً . وإبناً مطيعاً ، وأخاً محباً .

ويقول لين بول إن همايون : «كانت أخلاقه أخلاقا مسيحية كما كانت حياته كلها حياة رجل نبيل a gentleman » .

وفى بعض الأوقات كان همايون ذا قدرة كبيرة على العمل والنشاط . وغالباً ما كان يرتفع إلى مستوى الأوقات العصيبة ويتمكن من تدبير المواقف الجدية بعزيمته الماضية .

غير أن الكثير من صفاته الطيبة قد أفسدها إدمانه على تعاطى الأفيون ، ومع هذا فإن الشجاعة التى تحمل بها المصائب التى حلت به فى منفاه ، وطبيعته المرحة ، تدعو إلى العطف عليه والإعجاب به .

وقد أفسد عليه حياته تراخيه وتهاونه وكرمه ، وكثيراً ما كانت هذه الخلال تحرمه ثمار انتصاراته .

ولكن من الحق أن نقول إن شير شاه قد حجبه بما كان يتمتع به من عبقرية ممتازة ، فقد كان دون شك يفوق همايون كثيرا فى مهارته الحربية وبراعته الإدارية .

ولتقدير همايون تقديراً عادلا يجب أن ندخل فى اعتبارنا الصعاب التى قابلها عند توليه العرش ، وأهمها خيانة إخوته ، ومعارضة الأفغان الذين كانوا لا يزالون يعتبرون المغول دخلاء ، وأحوال الإمبراطورية المغولية المزعزعة ، فقد نجح أبوه حقيقة فى إنشائها ، ولكنه لم يكن قد قوى أسسها .

فإذا كان همايون لم ينجح فى المحافظة على هذا الملك الذى ورثه عن أبيه فإنما هذا يرجع إلى الأحوال السياسية المضطربة التى وجدها أكثر مما يرجع إلى أخطائه الشخصية وفشله .

الفصل الثالث

عودة الأفغان إلى الحكم

شيرشاه وخلفاؤه

(١٥٤٠ - ١٥٥٦)

خمسة عشر عاما مضت كفترة انتقال بين عزل همايون عن عرش الإمبراطورية المغولية فى الهند وعودته إليه ، تولى الحكم خلال هذه المدة أسرة سور Sur التى أسسها شيرشاه سورى Sher Shah Suri .

حياة شيرشاه :

اسمه الأصلى « فريد » ، ولد فى سنة ١٤٨٦ فى مدينة حصار فيروزة Hissar Firoza ، حيث كان جده يشرف على أحد الإقطاعات ، أما والده فكان جاجيردارا (صاحب إقطاع) سسرام Sasram ، وخواسبور Khwaspur فى إقليم بهار .

لم تكن طفولة فريد طفولة سعيدة ، فقد أهمله أبوه وأساء معاملته بتأثير زوجة أبيه ، فقد كان أبوه متزوجا من أربع زوجات وكان يخص صغرى الزوجات بعطفه وحبه ، وكانت هذه الزوجة بدورها تخص أولادها بعنايتها وتهمل من عداهم ، مما دفع فريد إلى ترك منزل أبيه والالتجاء إلى مقطع والده جمال خان Jamal Khan فى مدينة جونبور Jaunpur ، حيث انكب على دراسة اللغتين العربية والفارسية ، وقد أعجب جمال خان بنشاطه وتفانيه فى العمل والدراسة فأرسل إلى والده حسن يوصيه به خيرا .

وعاد فريد إلى بلده ، فعهد إليه أبوه بإدارة إقطاعاته فى سسرام وخواسبور فأدارها أحسن إدارة ، وأدخل نظام المعاملة المباشرة مع الزراع (الفلاحين) ،

فبعد أن عمل على حماية الفلاحين مما كان ينزل بهم من عسف واضطهاد وبعد أن وضع إدارة خراج الإقطاع على أسس سليمة ، بذل جهده لإخضاع الزمينادارية Zamindars المشاكسين وإجبارهم على الطاعة .

ولقد اكتسب فريد خبرة كبيرة أثناء إشرافه على إقطاع أبيه في المدة بين ١٥١١ و ١٥١٨ ، فلقد مر أثناء هذه الفترة — كما يقول مؤرخ حياته — بتجربة علمته فيما بعد كيف يسوس إمبراطورية هندستان .

وفي سنة ١٥١٩ اضطر تحت تأثير العداوة التي تضمرها له زوج أبيـــه إلى مغادرة وطنه ، فلجأ إلى بهار ودخل في خدمة حاكمها بهار خان Bahar Khan ابن داريا خان لوهاني Darya Khan Lohani .

وفي عهد هذا الحاكم بدأت تظهر شخصيته ويزداد نفوذه .

جهوده الأولى :

قضى فريد نحو أربع سنوات (١٥٢٢ — ١٥٢٦) ، في خدمة بهارخان ، فقدر له جهوده التي بذلها في إدارة الشؤون المدنية والمالية ، وفي إحدى رحلات سيده للصيد تمكن فريد من قتـــل أحد النمور ، فأعجب بهارخان بشجاعته ، ومنحه منذ ذلك الحين لقب شيرخان Sher Khan تقديراً لبطولته .

ولكن أسباب الخلاف لم تلبث أن قامت بينه وبين بهارخان فاعتزل خدمته ، ودخل في خدمة بابر الذي عينه — اعترافا بمواهبه الفذة — حاكما على جملة إقطاعات بما فيها إقطاع أبيه . وبعد موت بهارخان خلفه في الملك ابنـــه جلال خان Jalāl Khan ، وتولى كفالته شيرخان الذي انتهز الفرصة فاستحوذ على القوة والسلطان ، ولكن جلال خان عندما بلغ أشده رفض أن يكون ألعوبة في أيدي شيرخان ، فأرسل يستعين بحاكم البنغال ، غير أن الحليفين هزما في سوراججره Surajgarh وأصبح شيرخان حاكما على بهار .

الاستيلاء على البنغال :

واتجه شيرخان بناظره بعد ذلك إلى بنغال ، فغادر بهار فى أوائل سنة ١٥٣٦ إلى أن وصل إلى أسوار مدينة جور Gaur . ولم يقاوم محمود خان حاكم بنغال وإنما اشترى رضاء شيرخان بمبلغ كبير من المال .

وفى السنة التالية قصد البنغال للمرة الثانية واستولى على مدينة جور ، ثم هاجم قلعة روهتاس Rohtas إلى أن أخضعها . وبذلك قضى نهائيا على استقلال البنغـــال .

همايون يستعيد البنغال :

وعندما سمع همايون بنجاح شيرخان أسرع بجيش مغولى كبير نحو البنغال ، فلما قرب منها تحاشى الأفغانى المراوغ ملاقاته وتراجع إلى بهار ، ودخل المغول مدينة جور وأسموها جنة آباد . أما الأفغان فقد حاولوا أن يعوضوا مافقدوه بالاستيلاء على بعض أجزاء الإمبراطورية فى أقاليم بهار وجونبور .

موقعة تشوسا Chausa :

فقاد همايون جيشه وعبر نهر الجانج عند مدينة مونجهير Munghir ، ولكنه وجد نفسه هناك فى مركز دقيق ، فحاول أن يعقد الصلح مع القائد الأفغانى ، ولكنه لم يفلح . ودارت معركة بين الفريقين عند تشوسا Chausa ، حيث هزم المغول ، وألقى همايون إلى النهر بنفسه ، وكاد يغرق فى مياهه ، لولا أن أسرع أحد السائقين ـ واسمه نظام ـ بإنقاذه ، وكوفىء نظام بأن توج ملكا لمدة يومين ، وأمر كل القواد بتحقيق رغباته خلال هذين اليومين .

هزيمة همايون وفراره :

وبعد أن انتصر شيرخان في تشوسا ، اتخذ لقب شيرشاه ، وخطب باسمه على المنابر ، ولم تعد تربطه أي رابطة بالإمبراطورية المغولية . وعند ذلك حاول همايون أن يستعين بإخوته ولكن دون جدوى . وعبر شيرشاه نهر الجانج على رأس جيش كبير وعسكر بالقرب من كانوج ، وغادر همايون عاصمته وعسكر في مقابلة شيرشاه ، ثم قامت معركة بين الفريقين ثانية هزم فيها همايون واضطر إلى الفرار .

ضم البنجاب وأراضي الجخار :

وبذلك أصبح شيرشاه حاكم بنغال وبهار وجونبور ودلهي وأجرا دون منازع ، وبدأ يركز جهوده للقضاء على حكم المغول في الهند ، ولتحقيق هـذا الهدف بدأ سلسلة من الغزوات ، وكانت البنجاب أول إقليم سقط في يده ، انتزعه من كمران ، ثم استولى شيرشاه بعد ذلك على أراضي الجخار الواقعة بين نهري السند وجيلوم ، ليتمكن من حماية ملكه ضد أي هجوم قد يأتي من الحدود الشمالية الغربية ، فقد كان من المحتمل أن يتحالف كمران حاكم كابل وميرزا حاكم كشمير ، ويعملان معا على مهاجمته ، ولهذا أنشأ قلعة حصينة في روهتاس على نهر جيلوم Jhelum وترك بها حامية من ٥٠٠٠٠ جندي تحت قيادة عدد من القواد الذين يثق في إخلاصهم ، ثم عاد ثانية إلى البنغال ليعيد تنظيم شؤونها الادارية .

فتح مالوا Malwa :

وبعد أن أخمد شيرشاه الثوار والفتن في البنغال ، وبعد أن أعاد الأمن إلى ربوعها ، وجه عنايته إلى مالوا ، فقد كان يخشى أن يأتيه الخطر من هذه الناحية ويطمع أحد من الأمراء في مهاجمته في ملكه من الشرق ، فأسرع بالاستيلاء على جوالبور ، وأوجين ، وأتم فتح مالوا في نهاية سنة ١٥٤٢ .

امبراطورية شيرشاه سنة ١٥٤٠ م
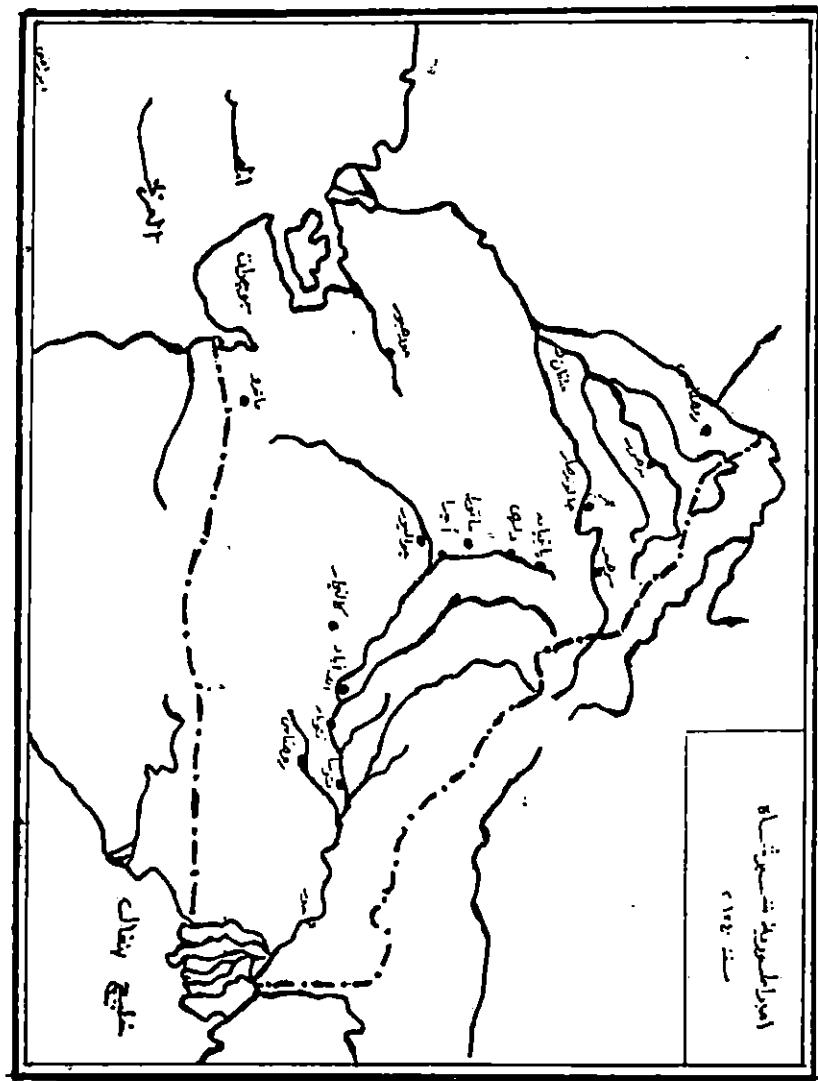
فتوحه فى راجبوتانا Rajputana :

وتتبع فتح مالوا سلسلة الفتوح فى راجبوتانا ، وقد قاوم الراجبوت فى هذا الإقليم مقاومة عنيفة ، غير أن النصر عقد دائماً لشيرشاه . وبعد أن دام القتال نحو سنتين أصيب شيرشاه أثناء حصاره لإحدى القلاع بقنبلة قضت على حياته ، وكانت وفاته فى ٢٢ مايو سنة ١٥٤٥ ، وهكذا انتهت حيـــاة شيرشـاه مؤسس الأسرة السورية ومعيـد الملك الأفغـانى .

سياسة شيرشاه الإصلاحية :

كان شيرشاه ، بحكم مولده فى الهند على معرفة وثيقة بالحياة الهندية وعادات الهنود ، وتقاليدهم ، كما أنه اكتسب خبرة واسعة فى أعمال الإدارة عنـدما كان يشرف على أملاك أبيه ، ولهذا فقد أثبت عنـــد توليه الملك أنه رجل إدارة وسياسة من الطراز الأول . والحقيقة أن أعماله وجهوده الإصلاحية كانت ممهدة إلى حد كبير لظهور السلطان العظيم أكبر .

وإن الأساليب التى اتبعها لحكم الشعب الهندى الذى تسوده الفروق فى التقاليد والعادات والثقافة والدين واللغة لدليل قوى على أنه كان حاكما ذكياً وقديراً ، لهذا أعقب حكمه ذكراً طيباً رغم قصر مدته ، وذلك نتيجة لإصلاحاته الإدارية ولأعماله الخيرية ، فلقد كان شيرشاه يعمل طيلة مدة حكمه ليلا ونهاراً لإصلاح الأحوال الاجتماعية والثقافية لرعاياه ، ورفع مستواهم المادى .

التقسيمات الإدارية للإمبراطورية :

وكانت أهم إصلاحاته الإدارية تتلخص فيما يلى :

قسم الإمبراطورية إلى ٤٧ قسما أو مديرية وجعل الحكم فيها لرؤساء القبائل المتعادية ممن كان العداء المستحكم والمنافسات المتبادلة بينهم خير ضمان للحد من أطماعهم .

وقسم كل قسم أو كل مديرية إلى جملة مدن يحكم كل مدينة شكدار أول ومنصف أول ، وقسم كل مدينة (أوساركار) إلى عدة من المراكز ، كل مركز يحكمه شكدار وأمين وخزنجى ومنصف وكاتب هندى ، وكاتب حسابات فارسى .

وكان كل مركز يضم عدداً من القرى ، كل قرية يحكمها مقدم وشدرى Chaudhri ويتوارى ، وهؤلاء كانوا وسطاء فى الحكم بين الحكومة المركزية وبين الشعب .

وكان الشكدار يختار من بين رجال الجيش ، ومهمته الأساسية تنفيذ الأوامر السلطانية ، وتقديم المعونة العسكرية للأمين كلما كان فى حاجة إليها .
أما الأمين فكان موظفا مدنيـــا ، وكان مسئولا عن عمله أمام الحكومة المركزية .

وأما الشكدار الأول والمنصف الأول فقد كانا الموظفين المدنيين الكبيرين اللذين يشرفان على أعمال موظفى المراكز ، وكانت مهمتها الأولى تتلخص فى ملاحظة سلوك الشعب وإقامة العدل بين الناس .

أما حاكم الإقليم واسمه سوبا هدار Subahdar فقد كان يحكم المديرية ، وكان مسئولا أمام السلطان نفسه عن أعماله المدنية والحربية جميعا .

أما السلطان نفسه ـ شيرشاه ـ فكان رأس هذا النظام كله ، وكان ـ بمقتضى هذا النظام ـ يعتبر ظل الله فى أرضه ، ولهذا لم يكن مسئولا أمام أحد من البشر .

نظام الخراج :

آمن شيرشاه منذ كان يدير أراضى والده أن استقرار الأمور فى الدولة لا يمكن أن يتحقق إلا إذا توافرت الرفاهية للفلاحين . وأيقن كذلك أن الطريقة التى كانت متبعه لتوريث وظائف الخراج كانت تضيع على الدولة جزءاً كبيراً من الضرائب المستحقة . ولهذا أمر بمسح جميع الأراضى الزراعية ثم تقسيمها

إلى قطع ، وكان نصيب كل مستأجر يقوم فى موسم الحصاد ويخصص ربع الإنتاج كنصيب للدولة . وتركت الحرية للفلاحين ليدفعوا هذا النصيب نقدا أو عينا تبعا لظروفهم وأعفى صغار الفلاحين من المكوس الباهظة ، وكانت مصالحهم موضع رعاية شديدة ، كما كانت زراعتهم فى أمان من أن يصيبها أذى، فقد وضع الحراس فى مختلف المناطق لمنع أى اعتداء على المحاصيل .

وعمل شيرشاه على تشجيع الزراعة ، وأمر بأن تقطع الغابات لتستغل أراضيها فى الزراعة ، وأنشأ الأهراء لخزن الغلال لوقت الحاجة .

وصيغت الأوامر الصادرة لمحصلى الخراج فى أسلوب إنسانى خيرى، كما كانت تنفذ فى رقة ولين ، وكانت القروض تقـــدم للفلاحين للتفريج عن كربتهم فى أوقات الشدة .

ادارة العدل :

وفى عهد شيرشاه انتشرت العدالة فى طول البـلاد وعرضها ، وكان القضاة وأمراء العدل ينظرون فى شكاوى الناس وقضاياهم فى دار العدالة . ولم يكونوا يخشون فى الحق لومة لائم ، ولهذا لم يكن أحد يستطيع أن يخالف القانون أو يفر من العقوبة اعتمادا على نسبه أو مركزه فى المجتمع ، وكانت الأحكام الصادرة عنهم قاسية رادعة .

تنظيم قوى الامن والبوليس :

وأعد شيرشاه نظاما جديداً لقوى البوليس ، ولم يجعله بوليسا تأديبياً يضم رجالا شرفاء مهذبين ، وإنما كونه من اللصوص والثائرين والساخطين والاشرار وأقامهم جميعا حراسا على الأمن . فقد قمع الجرائم ومنعها فى مملكته باتباع مبدأ المسئولية المحلية وفرضه على الأقسام الإدارية المختلفة ، فكان المقدمون

مسئولين عن الكشف عن حالات السرقة وقطع الطريق ، فإذا عجزوا عن القبض على اللصوص وقطاع الطريق ألزموا بدفع تعويض عن الأشيـــاء المفقودة ، وكذلك إذا حدثت حادثة قتل فى دائرة اختصاصهم ولم يتمكنوا من تقديم القاتل قبض عليهم وأعدموا .

وقد نجح هذا النظام نجاحا باهرا ، وبذلك انتشر الأمن فى ربوع المملكة ، وكان السياح وأبناء السبيل ينامون قريرى العين حتى فى الصحراء ، بل لقد كان الزميندارية يقومون على حراستهم بأنفسهم خوفا من بطش الملك .

وكان يســـاعد إدارة الشرطة المحتسبون ، وكان مهمتهم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويعملون بوجه خاص على منع الزنا وشرب الخمر .

ادارة المخابرات :

وأوجد شيرشاه إدارة منظمة المخابرات ، لأن الجاسوسية كانت من مستلزمات تلك العصور الاستبدادية ، وكانت هذه الإدارة تضم مجموعة كبيرة من الجواسيس المهرة ليطلعوا الإمبراطور على كل ما يحدث فى الإمبراطورية .

نظام الضرائب :

ألغى شيرشاه كثيرا من المكوس الجائرة واكتفى بجمع الضرائب الشرعية غير الباهظة . ولهذا فقد ألغى المكوس الداخلية ، وأمر بجمع ضرائب الإنتاج عند الحدود وفى محل البيع داخل الإمبراطورية . وكان من نتيجة هذا التنظيم الجديد للضرائب أن انتعشت التجارة ، وأن خفت الأعباء المالية على الشعب ، فأحسوا بشىء كبير من الرضى والطمأنينة ؛ وكانت ضريبة الجزية كذلك من الضرائب التى أمر شيرشاه بإلغائها .

وسائل المواصلات :

وعنى شيرشاه عناية كبيرة بوسائل النقل والمواصلات ، فأنشأ كثيراً من الطرق العامة التي تربط أجزاء الدولة بعضها بالبعض الآخر ، وكان أطول هذه الطرق الطريق الممتد من سونارجاون Sunargaon إلى السند ، كما أنشأ طرقا كثيرة أخرى كانت في جملتها تربط المدن الهامة ذات المواقع الاستراتيجية بعاصمة الإمبراطور ، وكان أهم هذه الطرق :

١ - الطريق من أجرا إلى برهانپور .

٢ - الطريق من أجرا إلى حدود مارواز ، مارا بمدينة بياناه .

٣ - الطريق من لاهور إلى ملتان .

وعلى جانبي هذه الطرق زرعت الأشجار ذات الثمار والظلال الوارفة ، وفي كل مرحلة بنيت السرايات لتوفير الراحة للمسافرين ، وألحق بكل سراى بئر للماء ومسجد وحديقة ، ويشرف عليها مجموعة من الموظفين المعينين من قبل الدولة ، وأهمهم الإمام والمؤذن والسقاة . وفي داخل السراى أعدت وسائل مختلفة لتوفير الراحة لطوائف الشعب من الهندوك والمسلمين على السواء ، فعين عددا من البراهمة لخدمة الهندوك ، وعددا من المسلمين لخدمة المسلمين .

وكانت هذه السرايات عاملا من عوامل انتشار الرخاء . فقد قامت في الغالب حول كل سراى مدينة ذات أسواق تجارية .

نظام البريد :

وعنى شيرشاه عناية خاصة بالبريد ، ولعبت هذه السرايات دوراً كبيراً في هذا النظام ، فعن طريقها كانت تصل إلى الإمبراطورية أنباء أقصى أطراف الدولة . ولهذا كان يرابط في كل سراى حصانان من خيل البريد ، وعلى طول

الطريق العامة كان يقيم العداؤون والفرسان ومهمتهم حمل الأوامر والرسائل السلطانية من مكان إلى مكان .

وإذا كان نظام البريد قد تقدم فى عهد شيرشاه هذا التقدم الرائع فان الفضل كل الفضل يرجع إلى تقدم وسائل المواصلات .

الاصلاحات الحربية :

وفى عهد شيرشاه تمت إصلاحات حربية كبيرة ، فقد بدأ بإلغاء النظام الإقطاعى ليجعل الصلة مباشرة بينه وبين أجناده ، فكان هو القائد الأعلى للجيش وكان هو الذى يدفع للجند وللضباط مرتباتهم ، وأمر الجند بطاعة الضباط لا لأنهم قوادهم ، بل لأنهم أتباع السلطان .

وكانت العادة المتبعة قبل ذلك إذا ثار أى حاكم إقليمى وخرج عن طاعة السلطان فإن جنوده يؤيدونه فى ثورته على السلطان ، ولكن شيرشاه وضع حدا لهذا التقليد الفاسد ، وأمر الجند بأن يطيعوا أوامر السلطان أولا ثم أوامر رؤسائهم المباشرين ثانيا ، وبهذا الإجراء الحكيم وضع حدا لكثير من أسباب الثورة والشغب .

أما الإصلاح الحربى الثانى ، فيتلخص فى أن شيرشاه أمر بمنع طرق التدليس المتبعة فى صفوف الجيش ، وذلك بإحياء النظام الذى كان وضعه علاء الدين خلجى وكان يقضى بوسم الخيول التى فى خدمة الدولة بميسم خاص ، وإنشاء قوائم تتضمن أوصافا كاملة للجنود ، وكانت العلامات الجسمية التى تميز الجنود وخيولهم تثبت فى هذه القوائم ليمكن مراجعتها فى أوقات التفتيش .

وكان السلطان وحده هو الذى يقوم بتجنيد الجنود ، وبتحديد مرتباتهم بعد استعراضهم استعراضا شخصيا . وبهذا ألغى النظام القديم الذى كان يمنح الجندى إقطاعا مقابل خدمته ، وحل محله نظام جديد يقضى بدفع مرتبات من خزانة الدولة.

ولم يعد يسمح للضباط الحربيين أن يمكثوا فى مكان واحد أكثر من سنة واحدة ، وصدرت إليهم الأوامر أن يسلكوا أثناء تحركاتهم سلوكا مرضيا ، وحذروا تحذيراً شديداً أن لا يعرضوا المحصولات الزراعية للتلف .

وأنشأ شيرشاه أخيراً قلاعاً حصينة فى مختلف أجزاء مملكته ليمنع أى إغارة محتملة من الخارج ، وبهذا تمتعت الهند فى عهده بمناعة تامة ضد الغزو الأجنبى وضد محاولات الشغب الداخلية .

إصلاح النقد :

وجد شيرشاه عند توليته العرش أن نظام النقد مضطرب غاية الاضطراب ، وأدرك منذ اللحظة الأولى أن الإستقرار المالى للحكومة يعتمد اعتماداً كبيراً على سلامة النقد ومكانته ، لهذا عمل على إصلاح النقد فأصدر نقوداً ذهبية وبرونزية جديدة ، وجعل لكل منها مقياساً رسمياً لمعيارها ودرجة نقاوتها ، وكان من أهم نتائج هذا الإصلاح أن انخفضت الأسعار ونشطت التجارة .

المنشآت العامة :

عنى شيرشاه عناية كبيرة بالأعمال الإصلاحية العامة التى توفر الرفاهية للشعب ، فشجع الزراعة ، وأنشأ الطرق والجسور ، وأقام الحدائق الجميلة ، وبيوت الزكاة ، وبنى المستشفيات ، وسرايات (رباع أو خانات) القوافل . ورعى الآداب والفنون ، وأسس الكتاتيب والمدارس ، وشيد المساجد والخنقاوات ، وخصص المنح والرواتب للمدرسين والطلاب ، وبنى عدداً كبيراً من مطاعم الفقراء ، وباختصار لقد بذل كل مايستطيع لتحسين أحوال رعيته . وكان مبدؤه الإصلاحى الذى يعمل على تحقيقه أنه يجب ألا يحرم أحد من نصيبه الذى يستحقه من رعاية الدولة ، ويجب ألا يأخذ أحد من هذه الرعاية أكثر من نصيبه .

العمارة :

كان شيرشاه بناءاً كبيرا . فقد جعل دلهى مدينة فخمة رائعة . وأنشأ قلعة روهتاس الشهيرة بالبنجاب ويعتبر ضريحه الذى بناه أثناء حياته ، والذى دفن فيه بعد مماته من أجمل الآثار الباقية فى الهند حتى اليوم . أما القصر الذى أنشأه فى قلعة أجرا فقد كان يثير أعجاب كل من يراه .

المثل التى كان يستهدفها شيرشاه فى حكمه :

كان شيرشاه يستهدف المثل العليا فى حكمه ، ومن الحق أن نقول إنه نجح إلى حد كبير فى تحقيق هذه المثل . فقد كان من أقواله التى يرددها : « يجب على الملك العظيم أن يكون نشيطا » ، وكان ينظر بنفسه فى كل صغيرة وكبيرة من شئون الحكم ، وكان يراقب موظفيه الإداريين وقواده الحربيين بعين يقظة ، ولم يكن يأل جهداً فى توفير الرفاهية لشعبه ورفع مستوى معيشته ، ويتمثل هذا واضحا فى قوله : « إن روح الرعاية الملكية تتمثل فى حماية أرواح الرعايا وممتلكاتهم ، وعلى الملوك أن يراعوا مبادىء العدالة والمساواة فى معاملاتهم لكل طبقات الشعب ، ولزام عليهم أيضا أن يصدروا تعليماتهم إلى أصحاب السلطان فى حكومتهم أن يحاولوا ما استطاعوا تجنب القسوة والاضطهاد فى أحكامهم » .

ومن الإنصاف أن نقول إن شيرشاه التزم تنفيذ هذه المثل أثناء حياته فاكتسب بذلك حب رعيته وإخلاص شعبه بمختلف طبقاته من الهندوك والمسلمين على السواء .

الرأى فى شيرشـــاه

شخصية شيرشاه من الشخصيات الطريفة فى تاريخ الهند الإسلامية ، فقد بدأ حياته جنديا صغيرا ، ثم ارتفع بنفسه شيئا فشيئا إلى أن وصل إلى عرش الهند ، ثم حكمها حوالى خمس سنوات ، فهو بذلك رجل عصامى ، ولم يكن يتردد لحظة فى أن يشارك بنفسه أو بيديه فى أى عمـــل إنشائى ، ولم يكن يقحم نفسه فى خصومات أو معارك غير ضرورية ، بل كان يكره القسوة كرها شديداً .

وكان شيرشاه سنيا مغاليا فى سنيته ، ولكنه مع هذا لم يكن متعصبا ضد العقائد الأخرى ، فقد كان عطوفا على رعاياه من الهندوك ، وخير شاهد على هذا أنه أعفاهم من الجزية ومن الضرائب الأخرى المفروضة على أهل الذمة ، كما عمل على نشر التعليم بينهم واستخدمهم فى إدارة حكومته دون تفرقة بينهم وبين غيرهم .

وكان شيرشاه إلى هذا قائدا حربيا ممتازا ، فقد أدار معاركه الحربية ضد همايون إدارة فنية ماهرة ، فنى خلال عشر سنوات استطاع أن يطوح بالإمبراطورية المغولية ، وأن يعيد الحكم للأفغان ، وأن يؤسس الأسرة الحاكمة الجـــديدة ، أسرة سور Sur . وإن معاركه الحربية فى مالوا Malwe وراجبوتانا Rajputana خير دليل على نبوغه الحربى ، وخير شاهد على أنه كان قائدا حربيا ممتازا .

ولكن نبوغه الحربى لم يرفع قدره فى التاريخ قدر ما رفعه إدارته العادلة الحكيمة ، فهو إذا كان قد عرف كيف ينتصر ، فقد عرف أيضا كيف يدعم هذه الانتصارات بجهوده التى لاتكل وبرقابته التى لاتغفو .

ومن الحق أن نقول إنه بالاصلاحات الإدارية ، وبالنظام المالى الذى وضعه

وبالسياسة الدينية السمحة التى التزمها ، قد مهد الطريق لعظمة السلطان أكبر . قال أحد مؤرخيه — وكان مصيبا فى قوله — : « إنه إذا طـــال به العمر لاستطاع أن يثبت قواعد الملك لأسرته ، ولما قدر للإمبراطورية المغولية أن تظهر ثانية على مسرح التاريخ ، ولكن حكمه كان كحكم صنوه بابر مؤسس الإمبراطورية المغولية ، حكما قصيرا لم يتجاوز الخمس سنوات ، ورغم هذا فإن الأعمال العظيمة التى قام بها خلال هذا الحكم القصير تضعه فى مصاف حكام الهند العظام » .

خلفـــاء شيرشاه

سليم شاه (١٥٤٥ — ١٥٥٣) :

خلف شيرشاه على العرش ابنه الصغير جلال خان ، وقد توج ملكا لالشيء إلا لأنه وصل إلى معسكر أبيه عند إعلان موته .

وبعد توليه العرش لقب نفسه بسليم شاه ، ولكنه سرعان ماتحقق من صدق المثل القائل : « إن الرأس التي تحمل التاج لايمكن أن تحس معنى الراحة » ، فإن الشغب الذي أحدثه الأفغان المشاكسون اضطره إلى استعمال وسائل العنف ، فأصدر كثيراً من اللوائح والقوانين . وبذل جهودا كبيرة لتقوية مركزه ، فألقى القبض على المعارضين له وأودعهم السجن توطئة لقتلهم .

ومع أن سليم شاه لايمكن أن يتطاول إلى منزلة أبيه ، فقد أثبت أنه كان ملكا قديراً ، فعلى الرغم من أن بعض القبائل ثارت في عهده ، فقد تمتع بحكم هادىء آمن لمدة تقرب من الثماني سنوات

اخضاع مالوا والبنجاب :

كان أول من أحس بقوته من حكام الأقاليم هو شجاعة خان حاكم مالوا فقد كان هذا الحاكم واسع الثراء ، كما استطاع أن يبسط سلطانه على الإقليم الذي يحكمه ، ولكنه لم يكد يعلم من عيونه (جواسيسه) بنوايا الإمبراطور حتى أسرع بإرسال ممثلين يعلنون ولاءه وخضوعه .

أما عظيم همايون حاكم البنجاب ، فقد كان أقل حزما وأكثر صلفا . فعندما أرسل سليم شاه يستدعيه إلى قصره ، لم يلب الدعوة ، وأرسل أحد أتباعه نائبا عنه . فاعتبر السلطان هذا العمل إهانة له وخروجا عن الطاعة ، وأصدر الأوامر في الحال بإعداد الجيش ، وقاده بنفسه إلى البنجاب ، مما اضطر عظيما إلى إعلان العصيان .

وهزم عظيم فى إمبالا ، ولاذ بأذيال الفرار . ثم جمع جيشاً من جديد واشتبك مع سليم شاه فى موقعة ثانية ، ولكنه هزم ، ولجأ إلى كشمير حيث قتل ، وبذلك تمكن سليم شاه من إخضاع البنجاب لحكمه .

شيخ علای Shaikh Alai :

وفى عهد سليم شاه قامت حركة أخرى دينية ، فقد استطاع الشيخ علاى ببلاغته أن يثير الحماس الدينى فى نفوس الشعب ، وأن يخلق المتاعب فى البنجاب . ولكن عندما اذنت هذه الحركة بالاتساع ، وابتدأت تتحدى السلطات الحكومية ، أمر السلطان بالقبض على الشيخ وقتله ، وبموته ماتت الحركة وهى لا تزال بعد فى مهدها ، وتوارى أتباعها وتلاشى أمرهم .

حکومت سلیم شاه :

اتبع سليم شاه سياسة العنف أثناء حكمه ليفرض سلطانه على مختلف نواحى المملكة . وكانت عدته فى هذا جيشا مستعداً حسن التنظيم والتدريب . وعمل سليم شاه على كبح جماح الأمراء بأن جمع كل ما كان لديهم من أدوات القتال ، كما أخذ منهم الفيلة التى يملكون ، ومنح المنح المالية التى تقدم لهم مقابل إمدادهم الدولة بنسبة معينة من الخيول .

وكان يشرف بنفسه على المنح المالية التى تمنحها الدولة ، وبذلك كان يستطيع التأثير فى الأحوال الاقتصادية للأمراء كلما كان ذلك ممكناً .

وأنشأ سليم شاه نظاما دقيقاً للجاسوسية كان يطلعه على كل صغيرة وكبيرة تحدث فى مملكته . وأصدر سليم شاه عدداً من اللوائح والقوانين لتنظيم العدالة ، ولم يسمح للقضاة والمفتيين بتفسير هذه القوانين ، وإنما جعل هذا من اختصاص المنصفين Munsifs وحدهم .

والضمان تنفيذ هذه القوانين ، ووزعت فرق الجيش فى أنحاء المملكة المختلفة كما كان السلطان يشرف بنفسه على حسن تنفيذها .

محمد عادل شاه ١٥٥٣ — ١٥٥٦ :

توفى سليم شاه فى سنة ١٥٥٣ ، وخلفه على العرش ابنه فـيروز خان ، ولكنه لم يلبث غير قليل حتى قتله عمه مبارزخان ، واستولى على الملك ولقب نفسه بمحمد عادل شاه . كان هذا الملك مسرفا داعراً ، فإنه لم يكد يلى العرش حتى أخذ يبدد أموال الخزانة فى سفه وإسراف شديدين . وشغل عادل شاه بملاهيه ومباذله ، وترك إدارة الحكم فى يد وزيره القدير همو Hemu الذى أشرف عـلى تسيير دفة الحكم بحزم وحكمة عظيمين ، ولكنه رغم قدرته لم يستطيع أن يسيطر على العناصر المشاغبة التى بدأت ترفع رأسها عند موت سليم شاه ، فقامت الثورات فى كل مكان ، وانهارت الإدارة الحكومية انهياراً تاما .

وبدأ إبراهيم خان عم الملك ، فاستولى على أجرا ودلهى ، ولكن سرعان ما تغلب عليه أخوه سكندر سور Sikandar Sur الذى استطاع أن يسيطر على كل المنطقة الواقعة بين نهرى السند والجانج ؛ وتلك كانت حالة الفوضى الشاملة التى أصابت الهند حينما أرسل الرسل إلى الإمبراطور السابق همايون يستدعونه من منفاه لارتقاء عرش أسلافه مرة ثانية .

وتقدم همايون واستطاع بمساعدة شاه إيران أن يهزم سكندر سور ، وأن يستعيد ملكه الضائع . وبعد اثنى عشر شهراً من حكمه الجديد سقط من سلالم مكتبه ـ كما سبق أن أسلفنا ـ ومات فى الرابع والعشرين من يناير سنة ١٥٥٦ .

الفصل الرابع

جلال الدين محمد أكبر

(١٦٠٥ - ١٥٥٦)

خلف « أكبر » أباه همايون على عرش أباطرة المغول فى الهنـــد . ويعتبر « أكبر » أعظم أباطرة الهند قاطبه ، فقد حكم حوالى خمسين عاما ، أسهم خلالها بجهوده الكبيرة فى سبيل رفاهية الشعب . ولا يستطيع أحد غيره من حكام الهند أن يرقى إلى مكانته كحاكم أريب فطن ، أو كسياسى بارع ، أوكمحارب ماهر .

حياة أكبر الاولى :

ولد « أكبر » فى أماركوت Amarkot فى الثالث والعشرين من نوفمبر سنة ١٥٤٢ ، وكان أبوه همايون فى حملته ضد السند ، وفى صحبته راجا أماركوت حين وصله نبأ مولد « أكبر » ، فبحث فى جعاب حاشيته فلم يجد إلا كيسا من المسك ، ففرقه على رفاقه ، ودعا الله أن ينتشر اسم ولده كما تضوع رائحة هذا المسك العبقة ، وحضر الطفل الوليد إلى المعسكر تحمله أمه حميده بانوبيجوم .

وبعد اثنى عشر شهراً من مولده ، تركه والده تحت رحمة عمـــه كامران فى مدينة قندهار . وفى الخامسة من عمره عرضه عمه بدافع الانتقام لطلقات جيش أبيه المتعاقبة عندما كان أبوه يحاصر قندهار ، ولم ينج الطفل من خطر الموت إلا بأعجوبة .

وفى الثانية عشرة من عمره ، كان قد اكتسب مهارة فائقة فى قيادة الجمال والخيل والفيلة ، كما كان قد أحرز خبرة كافية باستعمال الأسلحة ، وشاهد الكثير

من المعارك أثناء صحبته لأبيه فى منفاه . وفى الثالثة عشرة من عمره استدعى لتولى العرش خلفا لأبيه بعد موته .

تولى أكبر العرش :

بينما كان « أكبر » فى طريق عودته من البنجاب حيث كان ذهب إليها فى صحبة صديق والده الحميم بيرم خان لإصلاح ما افسده حاكمها ، تلقى فى كلانور Kalanaur نبأ وفاة والده . وبعد أن أقام شعائر الحزن على والده ، احتفل بتتويجه فى إحدى الحدائق فى ١٤ فبراير سنة ١٥٥٦ . ولصغر سنه ، تولى أتابكيته بيرم خان ، وبدأ يدير شؤون الحكم بنفسه ، كما عين محمد حكيم الأخ الأصغر « لأكبر » حاكما على إمارة كابل .

الحالة السياسية فى الهند عندما تولى أكبر العرش فى سنة ١٥٥٦ :

لم يعش همايون طويلا بعد أن استعاد الحكم ، ولهذا كانت الفوضى لا تزال تسود المملكة ، كما كانت المجاعات والطواعين تنتشر فى أنحائها ، فقد كانت الأجزاء الشمالية من الهند بما فيها دلهى وأجرا قد أصيبت بالطاعون الذى أودى بحياة الجم الغفير من أفراد الشعب .

أما الناحية السياسية فإن عرش دلهى كان قد أصبح كالكرة تتداولها أيدى الأفغان والمغول ، ولم تعد المملكة إلا تعبيراً جغرافيا أو مجموعة من الولايات ، كما غدت السيادة على الإقليم الشمالى الغربى من الهند موضع نزاع بين سكندرسور ومحمد عادل شاه ؛ وجمع سكندرسور جيشا كبيراً فى البنجاب ، وبدأ يسعى لنشر سيادته على كل بلاد هندستان ؛ وأما محمد عادل شاه فقد تراجع إلى الأقاليم الشرقية ، وأخذ يعمل على توسيع نفوذه هناك ، وفى نفس الوقت كان همو قائده الصنديد قد أحرز لنفسه بطولة فائقة بانتصاره فى أكثر من اثنتين وعشرين معركة ، ثم تقدم بعد ذلك متجها نحو أجرا على رأس جيش ضخم .

وقبل أن يتقدم بيرم خان للنجدة ، كانت أجرا قد سقطت وكان تردى بك Tardi Beg حاكم دلهى قد هزم ولاذ بأذيال الفرار . وبعد سقوط أجرا ، تقدم همو واستولى على دلهى ، وارتقى عرش المغول ، وضرب العملة باسمه ، ورفع المظلة السلطانية على رأسه . وبدأت تداعبه الآمال بعد هذه الانتصارات أن يستأثر بالعرش المغولى وخاصة أن صاحبه فى ذلك الحين كان طفلا صغيرا فى الثالثة عشرة من عمره .

وكانت إمارة كابل التى تولى حكمها محمد حكيم إمارة مستقلة إلى حد كبير عن دلهى ، وقد بدأ يهددها فى ذلك الحين سليمان حاكم بدخشان . أما البنغال فكان يستقل بحكمها أمراء الأفغان ، وكان الراجبوت قد أفاقوا من الصدمة التى أصابتهم أثنـــاء حكم بابر واستعادوا سيطرتهم على قلاعهم وحصونهم . وكانت مالوا وجوجرات قد نقضا الحلف الذى كان بينهما وبين الحكومة المركزية أثناء حكم محمد تغلق Tughluq . وكانت جندوانا Gondwana يحكمها رؤساؤها المحليون . وكانت أوريسا Orissa مستقلة . وكانت كشمير والسنـــد وبالوخشتان قد تخلصت من كل نفوذ خارجى وكانت سلطنة الدكن فى أحمد نجار وبيجابور Bijapur وجولكوندا Golconda وخاندش وبرار Khandesh & Berar يتولى الحكم فيها سلاطينها الذين كانوا فى نزاع دائم بعضهم مع البعض الآخر .

وكانت إمبراطورية فيجايانجار Vijayanagar فى ذلك الوقت فى أوج عظمتها قوة وثراء وحضارة ، وكانت قوى البرتغال تسيطر على ميـــاه البحر العربى والخليج الفارسى ، كما امتد نفوذهم على سواحل الهند الغربية واستولوا على بعض موانئه الهامة ، وبخاصة جوا Goa وديو .

الصراع مع همو ومعركة بانيبات الثانية سنة ١٥٥٦ :

تلك كانت حالة الهند عندما ارتقى «أكبر» عرش آبائه من المغول ، وكان من يمن الطالع لهذه الأسرة المغولية أن وجد الإمبراطور الصغير فى ذلك الوقت إلى جانبه بيرم خان ، ذلك الرجل العظيم والحاكم القدير . فقد بذل كل جهده لمساعدة سيده وتدعيم ملكه إلى أن بلغ رشده ، وتم نضجه واكتملت رجولته .

وجد بيرم خان الخطر الأكبر متمثلا فى همو الذى كان يقود جيشا ضخما يهدد به الإمبراطورية المغولية ، وكان معظم قواد الجيش المغولى قد نصحوا الإمبراطور بأن يتراجع إلى كابل ، ولكن بيرم خان قاوم هذه النصيحة الوجلة لأنه إعتقد أن فى تنفيذها قضاء على آمال الأسرة المغولية ، وأمر فى الحال بالقبض على تادرى بك وقتله لأنه لم يحسن التصرف أثناء مواجهته للعدو ، ثم تقدم بيرم خان بنفسه لمقاومة همو . وحالف الحظ هذا القائد المغولى الصلب فى البداية ، فقد استطاعت فرقة من طلائع الجيش أن تعرقل همو بالإستيلاء على مدفعيته ، وبدأت معركة فى بانيبات بين جيشين يقودهما قائدان يمتازان بالمهارة والنبوغ الحربيين .

وهجم همو بفيلته هجمة عنيفة مزقت الجناح الأيسر للجيش المغولى ، وأصابت الجيش المغولى كله بالذعر . ولكن النصر لم يلبث أن انقلب إلى جانب المغول وخاصة بعد أن أصيب همو بسهم فى عينه أفقده وعيه . وكان سقوط همو من على ظهر فيله هو الذى قرر مصير المعركة .

وقبض على همو بطل الهندوس وأملهم المرجو ، وحمل إلى الإمبراطور . ونصح بيرم خان الإمبراطور الصغير أن يقتل هذا العدو اللدود ، ولكن الملك

الفارس أبى أن يحقق هذه الرغبة وقال له : « إنه ليس من الفروسية فى شىء أن أقتل عدوا منهزما » ، وعند ذلك استل بيرم خان سيفه وتولى هو قتل همو .

نتائج المعركة :

أزال هذا النصر أقوى معارض لأكبر ، فقد هزم همو وقتل ، وشتت شمل جيشه ، وغنم الجيش المنتصر غنائم كثيرة ، تشمل مبالغ طائلة من المال ، و ١٥٠٠ فيل ، وتقدم فاستولى على دلهى وأجرا والمناطق المجاورة ، وضاعت تماما آمال الهندوس لتكوين ملك خاص بهم فى الهند ، وارتفعت مكانة الجيش المغولى منذ ذلك الحين ، ورحب بأكبر كإمبراطور لهندستان ، وانتهى حكم الأفغان فى الهند ، وبدأ المغول يحكمون الهند ثانية ، وتلك كانت أهم نتائج معركة بانيبات الثانية .

اخضاع المطالبين بالملك من أسرة سور ، ونهاية الأسرة :

وبعد شهر من معركة بانيبات ، بدأ بيرم وأكبر يوجهان اهتمامهما لأفراد البيت السورى الذين يطالبون بالعرش ، وكان بيرم — قبل اصطدامه بهمو — قد أرسل جيشا لمقاتلة سكندرسور الذى كان قد احتمى بحصن ماتكوت Mankot . وحوصرت القلعة ، وضيق الخناق على سكندرسور حتى اضطر أن يطلب الصلح ، وسلمت القلعة ، ومنح سكندر إقطاعا فى الشرق أقام به إلى أن مات فى سنة ١٥٦٩ . وفى سنة ١٥٥٧ ، لقى محمد عادل شاه حتفه أثناء قتال قام بينه وبين ملك البنغال ، وهكذا استطاع أكبر خلال مدة وجيزة أن يتخلص من المنافسين الثلاثة .

وفى السنة التالية (١٥٥٨) ضمت أجمير وجوالبور وجونبور إلى الإمبراطورية المغولية .

النزاع بين أكبر و بيرم خان :

وبعد هذه الفتوح والانتصارات الحربية بدأ بيرم خان يوجه جهوده للحالة الداخلية ، ولكنه لم يلبث أن اصطدم بأطماعه الشخصية أولا . وبالملك الذى يتولى الوصاية عليه ثانيا .

وقصة حياة بيرم خان فى الواقع قصة طريفة تستحق الدراسة ، وكان بيرم خان تركمانى المولد ، شيعى المذهب ، وكان من أخلص أتباع همايون ، فقد تحمل معه كل متاعب الحياة فى منفاه ، ووقف إلى جانبه فى أشد الأزمات وأحرج الساعات ، وبدون نصائحه ومساعدته لم يكن همايون يستطيع استعادة ملكه فى الهند . ولم يكن بيرم خان أقل إخلاصا لأكبر ، فبفضل مشورته خاض « أكبر » غمار معركة بانيبات الثانية ، وبفضل توجيهه انتصر فى هذه المعركة الحاسمة ، وفى عهد أتا بكيته احتلت دلهى وأجرا والمناطق المحيطة بهما ، كما ضمت أجمير وجواليور وجونبور ، وكان بيرم خان أخيراً هو الذى استطاع أن يقضى على منافس « أكبر » من أسرة سور . وقد استطاع بفضل مقدرته وسنه وتجربته أن يبسط نفوذه على الإمبراطورية المغولية ، فقد كان فى الحقيقة سياسيا محنكا وإداريا حازما ، ولكنه مع هذا كان يغار من أصدقاء سيده وما كان يسمح لأكبر أن يقدم لأحد منهم شيئا من رعاية أو فضل إلا بإذنه وبعد استشارته . وإلى هذا فقد اكتسب بيرم خان عداء الكثيرين من رجال البلاط ونسائه لصلفه وكبريائه وتعاليه على الحاشية ، وكان فى مقدمة الناقمين عليه الملكة الوالدة البيجوم حميدة بانو ، ومرضعة أكبر « مهام أنقاه » ، وأخوه فى الرضاع أدهم خان ، وحاكم دلهى شهاب الدين ، وقد كانوا جميعا يكرهون بيرم خان وإنما لأسباب مختلفة ، ولهذا فقد كانوا يبذلون دائما

كل جهودهم لتسوء العلاقات بين السلطان وأتابكه ، وإلى أن حدثت حادثة تافهة كانت عود الثقاب الذى أشعل النار ، وكانت السبب فى النزاع الجدى الذى نشب بين الرجلين .

حدث أن كان أكبر يتمتع بمشاهدة صراع بين الفيلة ، وأثناء هذا الصراع اشتدت ثورة الفيلين المتصارعين ، وخرجا عن طورهما ، وتخطيا الأسوار ، وهاجما معسكر بيرم خان - وكان قريبا من المكان - وهددا حياته بالخطر .

ومع أن « أكبر » اعتذر بأن الحادث إنما وقع بطريق المصادفة المحضة فقد غضب بيرم خان غضبا شديداً ، وأمر فى الحال بقتل رجل برىء من خدم السلطان الخاصين ، عند ذلك ثار أكبر لكرامته .

وحقيقة لقد كانت العلاقات بينه وبين أتابكه قد سادها الفتور وقتا ما ، ولكن أكبر كان قد بذل ما يستطيع بذله لإرضاء بيرم خان وتهدئته ، فعقد له على سليمة سلطانة بنت أخت همايون ، ومع هذا لم يمض غير قليل حتى أمر بيرم بقتل رجل من رجال الحاشية يدعى بير محمد لجرم قد اقترفه .

هذه التصرفات لم تفسد العلاقات بين السلطان وبيرم خان وحسب، بل خلقت له أعداء كثيرين فى القصر ، ويضاف إلى هذا أن بيرم خان كان يعمل دائما على تعيين أصدقائه من الشيعة فى المناصب الكبرى مما أثار غضب السنة .

ثم غضب أكبر الغضبة الكبرى عندما علم أن بيرم خان يدبر الأمر لإجلاس أبى القاسم - ابن كران - على العرش ، وبدأت المؤامرات تنظم لإبعاد بيرم خان، واشترك فى تنظيمها حميدة بانو بيجوم ومهام أنقاه ، وأدهم خان ، وشهاب الدين. وسافر أكبر فى ذلك الوقت إلى دلهى ليعود أمه ، وأثناء مقامه معها اتخذت مرضعته مهام أنقاه كل مالديها من حيل لتوغر صدر السلطان على أتابكه ، وكان

أكبر فى ذلك الوقت على استعداد تام لقبول كل ما يقال له ، ولهذا لم يكد يعود من دلهى حتى أصدر الأمر التالى :

« شاءت إرادتنا أن نتولى نحن حكم شعبنا بنفسنا ، وقد اقتضى الأمر أن يستقيل رائدنا من الوظائف التى يتولاها ، وأن يرحل إلى مكة ليقضى بقية حياته فى الصلوات والعبادة بعيدا عن متاعب الحياة العامة » .

عند ذلك أدرك بيرم خان ما كان يدبر له من وراء ستار ، وأدرك فى نفس الوقت خطورة الموقف وأنه فى الواقع قد تجاوز حده ، فأسرع بارسال اثنين من قواده الذين يثق بهم إلى القصر يرفعان ولاءه ويؤكدان خضوعه وإخلاصه للعرش ، وقبض أكبر على الرسولين وسجنهما ، وأرسل رسولا من قبله إلى بيرم خان يؤكد الأمر السابق بضرورة الإسراع بالرحيل إلى مكة .

هذا الإجراء حطم كبرياء بيرم خان ، واشتد به الغضب، فأعلن ثورته على السلطان ، ولكنه هزم وأسر وحمل إلى السلطان ، ورغم هذا كله فقد رعى السلطان له سابق خدماته فعفا عنه. وعندما وصل بيرم خان إلى لاهور حيث كان يقيم السلطان ، تأثر تأثراً بليغا للطريقة التى استقبل بها ، فالقى بنفسه عند قدمى السلطان وانفجر فى البكاء ، ورفعه أكبر وأجلسه فى مكانه السابق على يمينه وعلى رأس كبار الدولة ، ثم خلع عليه وعرض عليه أن يختار أمرا من ثلاث :

أ - إذا آثر أن يبقى فى القصر فإنه يسمح له بذلك. وسيعامل بكل إكرام وإعزاز باعتباره صاحب فضل على البيت المالك .

ب - وإذا آثر أن يظل فى الخدمة فسيعين واليا على إقليم من الأقاليم السلطانية .

ج - وإذا آثر أن يحيا حياة دينية فستقدم له كل المنح والمساعدات التى تمكنه من الحج إلى مكة .

وأجاب بيرم خان بأنه مادام قد فقد ثقة مولاه مرة فإنه لايستطيع أن يستمر بعد ذلك فى خدمته للدولة ، ثم أضاف قائلا أنه يكفيه أن تدركه رحمة البادشاه ، وختم حديثه بقوله : « دعنى إذن أبعد بأفكارى عن هذا العـــالم إلى عالم آخر أفضل ، لتسمح لى بالرحيل إلى الحرم الشريف» .

ووافق البادشاه على ملتمسه ، وأمده بحرس يرافقه ، ووهبه معاشا كافيا ، ولكنه لم يقدر له أن يتم رحلته إلى الحرم المكى ، فقد قتله أحـــد أعدائه الخاصين أثناء الطريق ، وكان ذلك فى يناير سنة ١٥٦١ .

موقف أكبر من رجال الحاشية ونساء القصر :

مهد زوال بيرم خان الطريق للحاشيـة ورجال القصر ونسائه . وكان أبرز هؤلاء وأقواهم نفوذا مرضعة السلطان مهام أنقاه ، فقد كانت موضع ثقتـــه ومشورته فى كل شؤون الدولة والحكم ، ويرى بعض المؤرخين أن أكبر كان يحكم خلال هذه السنوات تبعـــا لمشوره هذه السيدة . ولكن الحقائق التاريخية تدحض هذه الدعوى ، وتثبت أن أكبر كان الحاكم بأمره ، بدليل عفوه عن بيرم خان وإكرامه له رغم معارضة مهام أنقاه وإصرارها على ضرورة عقابه ، وبدليل ما فعله أكبر بأدهم خان أخيه فى الرضاع وابن مهام أنقاه ، فقد أمر بأن يلقى من برج القلعة إلى الأرض مرتين حتى قتل وتناثر مخه لأنه جـــرأ فقتل رجلا من المقربين للسلطان .

وتعتبر سنة ١٥٦٤ بدءاً لعهد جديد فى حكم « أكبر » . ففى هذه السنة كان قد أمسك فى يده بمقاليد الحكم كلها ، وكان قد قضى على كل منافسيه ، وكان قد تخلص من نفوذ أتابكه بيرم خان ، ثم اعتزم بعد ذلك أن يكون الحـــاكم المطلق فى بلاد الهند . ولكنه قبل أن يبدأ سلسلة غزواته كان عليه أن يخضع بعض الثورات .

ثورة خان زمان Khan Zaman :

كان أحد قواد « أكبر » من الأزابكة قد رقى إلى مرتبة خان زمان تقديراً لجهوده فى معركة بانيبات الثانية (١٥٥٦) ؛ وفى سنة ١٥٦٠ م حاول الأفغان بقيادة شيرشاه الثانى بن محمد عادل شاه الاستيلاء على دلهى ، واستطاع خان زمان أن يهزمهم ، ولكنه بعد انتصاره رفض أن يرد إلى السلطان الفيلة التى غنمها فى الحرب ، فخرج السلطان بنفسه لمقاتلته وتقدم نحو جونبور ، ولكن خان زمان عندما سمع بخروج السلطان أسرع فى الحال يقدم له ولاءه وخضوعه ، ولم يصطحب معه الفيلة وحسب بل أخذ كل ما معه الغنائم التى غنمها ، وبعض الهدايا الأخرى . وقابله السلطان بما عرف عنه من تسامح ، وعفا عنه وتغاضى عن عصيانه ، وعينه واليا على جونبور .

ثورة أدهم خان :

كان أكبر قد أرسل أدهم خان لإخضاع حاكم مالوا ، واستطاع أن يحرز نصراً كبيراً بالقرب من سرنجبور Sarangpur ، ولكنه حذا حذو خان زمان فاستحوذ على غنائم المعركة ، وأعماه النصر فأخذ يوزع هذه الغنائم بسخاء ليستزيد من الأتباع ومن حبهم له ، واستبقى لنفسه بعد هذا الرايات السلطانية وشعار الملك والنصيب الأكبر من الأموال التى كان يجب عليه أن يرسلها إلى السلطان . ولهذا خرج أكبر على رأس جيشه واتجه إلى مالوا ، وفاجأ أدهم خان قبل أن يتمكن من العصيان ، واستولى على الغنائم ، وعزله عن حكم مالوا .

وبعد هذا الحادث أمر أدهم خان بملازمة القصر . وهناك ثارت نيران الحقد فى صدره على رجل من رجال السلطان اسمه شمس الدين لأنه رقى إلى مرتبة وكيل ، وهى وظيفة تشبه وظيفة رئيس الوزراء ، ثم دفعه الألم الذى كان يحسه لفقده الحكم فى مالوا ، فتسلل فى إحدى الليالى مع بعض رجاله إلى ديوانى خاص

وانقض على شمس الدين وقتله ، وحدثت ضجة بعد مقتل الوكيل أيقظت السلطان من نومه ، فأمر فى الحال بإحضار أدهم خان من مسكنه ، وعندما علم بموت وكيله ، لكم أدهم خان لكمة قوية أوقعته إلى الأرض ، ثم أمر به فألقى من شرفات القصر إلى داخل القلعة فمات ، وكان هذا فى سنة ١٥٦٢ .

أكبر والراجبوت

أدرك أكبر منذ اللحظة الأولى أن سياسة أسلافه فى الحكم كان يشوبها خطأ ما ، وأدرك أن إمبراطوريته يجب أن ترتكز على أساس قوى من حب رعاياه ورضائهم بصرف النظر عن عقائدهم ومذاهبهم ، ولهذا بدأ يعمل على كسب حب الهندوك بوجه عام والراجبوت بوجه خاص. فقد كان الراجبوت يكونون الطبقة الحربية فى المجتمع الهندى ، وكانوا سلالة القواد العسكريين فى الهند ولم يكن فى استطاعة الأسرة الحاكمة الجديدة أن تستغنى عن تأييدهم ، ولهذا بدأ أكبر يعمل على كسب رضاء الراجبوت وتأييدهم للحكم المغولى ، واتخذ لتحقيق هذا الهدف وسائل كثيرة منها :

١ — أهداف الزواج :

بدأ أكبر يعقد أحلافا تعتمد على الزواج وصلات النسب ، وكان أول راجا قدم ابنته لتكون زوجا لأكبر هو راجا أمير واسمه بهارمال كاشهواها Kachhawaha Baharmal . وقد ضمن هذا الزواج تأييد هذه الأسرة الراجبوتية القوية للسلطان ، وكان يمثل فجر عهد جديد فى تاريخ السياسة الهندية ، فقد أمد الدولة بسلسلة من الحكام المشهورين وغذى الإمبراطورية المغولية خلال أربعة أجيال متعاقبة بعدد من أعظم القادة والساسة الذين أنجبتهم الهند فى العصور الوسطى .

تم هـذا الزواج الأول فى سنة ١٥٦٢ ، وفى سنة ١٥٧٠ تزوج السلطان من بعض أميرات الراجبوت فى ولايتى جيسالمير Jaisalmir وبكانير Bikaner ، وفى سنة ١٥٨٤ تزوج ولى العهد الأمير (جهانجير) من ابنة راجا بهجوان داس Rajah Bhagwan Des.

٢ – اباحة المناصب الكبيرة للراجبوت وبقية الهنود :

تغاضى أكبر عن الفروق الدينية . وعمل على تشجيع رعاياه من الهنود وتقدير خدماتهم ، وبخاصة الراجبوت ، فعينهم فى المناصب الكبرى مدنية كانت أم حربيـــة ، ووضع فيهم ثقته الكاملة وأتاح لهم فرصة الترقى إلى كل مراتب السلطان ، فتولى عدد من الراجات مناصب القيادة فى جيشه ، وكان نصف الجيش تقريباً من الهندوك وكذلك كان عدد كبير من قواد الجيش .

٣ – حرية العقيدة :

كان التسامح هـو أهم المبـادىء التى قامت عليهـا سياسة أكبر ، فأتاح لجميع رعاياه حرية العقيدة والرأى ، وألغى ضريبة الجزية التى كانت تؤخـذ من أهل الذمـة ، كما ألغى جميع الضرائب التى كانت تفرض على الحجـاج من الهندوك ، وساوى فى معاملته بين المسلمين والهندوك من رعاياه ، بل لقد كان أكثر محاباة للهندوك ، ولإرضائهم كان كثيراً ما يتبع تقـاليدهم وعاداتهم ، وكثيراً ما كان يختلط بهم ويتظاهر باتباع عقائدهم .

٤ – الاصلاحات الاجتماعية :

كان أكبر شديد العنـاية برفاهية رعاياه من الهنود فبذل جهـده لـكى يرفع عنهم ما نزل بهم من ضيم ، وعمل كذلك على أن يقضى على المفاسد والعيوب التى كانت تشوب المجتمع الهندى ، فمنع زواج الأطفال ، وحارب عادة حرق الأرمل حية مع زوجها الميت ، وشجع زواج الأرامل ، ودعا لمحاربة التمييز بين الطبقات ،

وعمل أكبر على نشر التعليم بين الجميع دون استثناء ، ففي عهده كان الهنود يدرسون مع المسلمين جنبا إلى جنب دون أي تفرقة في المركز أو الجنس أو العقيدة .

أثر هذه السياسة :

بهذه الوسائل جميعا استطاع أكبر أن يضمن ولاء الراجبوت وتأييدهم ، ويمكننا تلخيص الفوائد التي جناها أكبر نتيجة لسياسة التسامح التي أتبعها فيما يلي : ـ

١ ـ انتهى خطر الراجبوت الذي كان يهدد الدولة .

٢ ـ عمل الراجبوت بعد خضوعهم على مساعدة الدولة ضد الأزبك وكل القواد الخارجين .

٣ ـ كانوا أعوانا له كذلك على الأفغانيين الذين أبعدوا عن العرش ، وكان من الحكمة أن يعمل السلطان على الإفادة من جهود الراجبوت ، فقد كانوا عنصراً حربيا ممتازاً ، وكان من الحكمة كذلك أن يخضع الراجبوت لحاكم يقدر مزاياهم ، ويكافئهم على خدماتهم ، ويحترم شعورهم وعقائدهم .

أكبر والبرتغاليون

بعد أن أنشأ أكبر العبادة خانة في فاتحبور سكرى ليجتمع فيها رجال الفكر في دولته ، أرسل دعوة إلى السلطات البرتغالية في جوا ، وطلب منهم أن يرسلوا إلى بلاطه بعض العلماء المتفقهين في الديانة المسيحية ليعرفوه الأسس الفلسفية لدياناتهم . وفرح البرتغاليون بهذه الدعوة وطمعوا في غير مطمع ، فقد اشتد بهم الأمل إلى تبشير سلطان الهند ليعتنق الديانة المسيحية .

الإرسالية الأولى :

وفي سنة ١٥٨٠ ، وبعد سنة من وصول الدعوة ، أرسلوا للسلطان إرسالية

برئاسة الأب رودلف أكوافيفا Father Rudelf Acquaviva والأب مونسرات Father Monssrat وهما من أصدق الناس إيمانا وإخلاصا لها .

وقابل « أكبر » المرسلين بكل ترحاب وعاملهم بكل احترام ، وسمح لهم أن يبنوا كنيسة فى مدينة أجرا ، وأظهر إعجابه الشديد بصورة المسيح والعذراء ، بل لقد وضع ابنه سليم تحت رعايتهم ليجرب أثر التعاليم المسيحية فى عقلية طفل صغير غير متعصب .

ولكن التجربة فشلت ، ولم يستطيع شيء أن يؤثر فى إيمان الإبن بدينه ، ومع هذا فان الآباء لم يلبثوا أن شعروا بخيبة أمل كبيرة ، فإن السلطان لم يكن غنيمة سهلة . وبعد أن أقامت البعثة ثلاث سنوات فى بلاط السلطان ، عادت فى سنة ١٥٨٣ دون أن تستطيع تحقيق أهدافها ودون أن تستطيع تنصير أكبر .

الإرسالية الثانية :

وأرسلت إرسالية ثانية من جوا ، وصلت إلى القصر المغولى فى سنة ١٥٩٠ ولم تكن أكثر نجاحا من سابقتها ، فقد فشلت هى أيضا فى تنصير أكبر ، وبدأ هؤلاء اليسوعيون يدركون أن عقل السلطان أكبر كان عقلا شديد العصيان رغم ما كان يحبوهم به من رعاية ورغم ترحيبه بوجودهم فى بلاده ، وابثت هذه البعثة فى بلاط أكبر ثلاث سنوات أخرى (١٥٩٠ — ١٥٩٤) ثم عادت تجر كأختها أذيال الفشل .

الإرسالية الثالثة :

وصلت هذه الإرساليه الثالثة إلى لاهور حيث كان يقيم السلطان فى ذلك الوقت ، وقوبلت بحفاوة عظيمة ، وأحرزت نجاحا لم تحرزه البعثتان السابقتان، فقد سمح لها أن تبنى كنائس فى لاهور وأجرا ، وأن تقوم بالتبشير إن استطاعت، كما حصلت على بعض الامتيازات التجارية ، وبذلك أصبحت إلى حد ما مؤسسة دائمة فى الإمبراطورية المغولية .
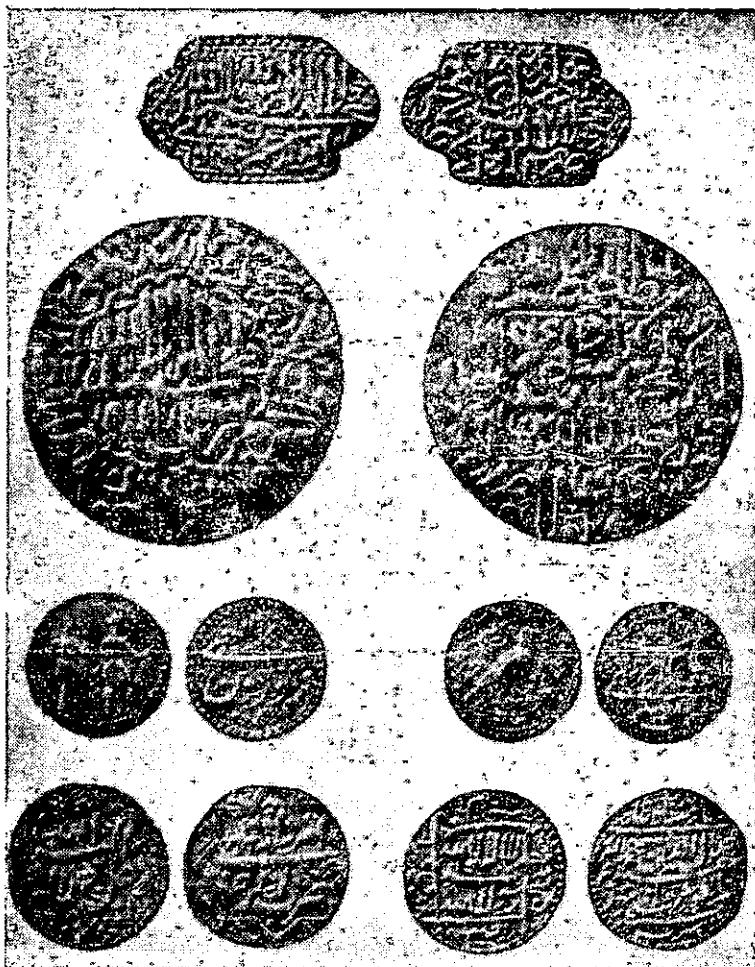
عملات ذهبية بإسم أكبر

أغراض أكبر :

لقد خدع البرتغاليون أول الأمر فى تشجيع أكبر ، وعقدوا عليه الآمال الكبار ، ولكنهم لم يلبثوا فى النهاية أن أصيبوا بخيبة أمل كبيرة ، والسبب فى هذا بسيط ، فقد كان الهدف الذى هدف إليه أكبر من وراء استدعائه البعثات البرتغالية إلى بلاطه والاحترام العميق الذى أضفاه على نبيهم هدفا سياسيا أكثر منه دينيا ، فقد رغب فى صداقة البرتغاليين اصحاب جوا ، لأنهم كانوا يملكون مدفعية ضخمة ، وكان هو يطمع فى مساعدتهم له ضد قلاع أسيرجره Asirgarh ، وضد ابنه (سليم) الذى كان قد خرج عليه ، والحقيقة أن أكبر كان دائما رجل سياسة ورجل دولة أكثر منه رجل دين ، ووراء أعماله تكمن دائما بعض الدوافع السياسية .

الفصل الخامس

جلال الدين محمد أكبر

الفتوحات الإقليمية

بدأ أكبر على ضوء تجارب الماضى وعلى ضوء الأحداث الجارية المتتابعة يخشى الأخطار والصعاب التى يمكن أن تقابله لو أن الهند ظلت كما كانت مجموعة من الولايات الصغيرة المتفرقة أو مجرد تعبير جغرافى .

وأدرك أن السبيل الوحيد لإقرار السلام هو إيجاد حكومة مركزية قوية تدير أجزاء الهند القصية ، أو بمعنى آخر هو العمل على توحيد الهند ، وتوحيد الهند كان يعنى فتح كل أجزاء الهند التى لم تكن قد خضعت بعد لحكم المغول .

الفترة الأولى :

استولى أكبر على دلهى وأجرا بعد انتصاره فى معركة بانيبات سنة ١٥٥٦ ، وفى عهد أتابكية بيرم خان ضم إلى ملكه أجمير ، وجواليور ، وتشونار ، وميرتا .

وفى سنة ١٥٦٤ كان قد خلص له عرش دلهى بعد أن أبعد بيرم خان واستولى على السلطة الفعلية ، ثم بدأ يعد العدة لكى يصبح حاكما على كل هندستان ، ولذلك بدأ سلسلة من الفتوح توجت أخيرا باستيلائه على أسيرجره فى سنة ١٦٠١ .

١ - جندوانا :

ففى سنة ١٥٦٤ أرسل جيشا بقيادة آصاف خان لمهاجمة جندوانا - إحدى ولايات الراجبوت فى الإقليم الأوسط من الهند - وكانت تحكم هذه الإمارة السيدة درجفاتى Durgavati نيابة عن ابنها الطفل الصغير ، وقد بذلت هذه السيدة جهدا عنيفا للدفاع عن إمارتها الصغيرة وقاومت الجيش المغولى مقاومة باسلة ،

وعندما وجدت أخيرا أن المقاومة غير مجدية طعنت نفسها وخرت قتيلة فى ميدان القتال .

وبذلك تم إخضاع جندوانا وضمها ، واستولى المحاربون على خزائنها وعلى كميات هائلة من الغنائم ، أما بير نرايان Bir Narayan الراجا الصغير فقد استأنف القتال ، ولكنه لم يلبث أن قتل فى المعركة بعد دفاع يائس عن شرف الأسرة .

٢ — موار Mowar :

فى نهاية سنة ١٥٦٦ كان أكبر قد أخضع كل أعدائه ، ولهذا بدأ يوجه جنوده للاستيلاء على راجبوتانا ، إذ لم يكن من المعقول وهو يعمل لتكوين دولة هندية موحدة تحت حكمه أن يترك حصون هذا الإقليم وقلاعه القوية تشرف على حدود مملكته . وقد شن أكبر على مدن موار المختلفة غارات وحروبا كثيرة ، قاد هو نفسه بعضها أحيانا ، وقاد ابنه سليم بعضها أحيانا أخرى . وقد قاوم أمراء موار غارات أكبر مقاومة عنيفة ، ودافعوا عن مدنهم دفاع الأبطال ، ثم استسلم بعضهم ولجأ البعض الآخر إلى المناطق الجبلية يقاومون منها دولة المغول ، وانتهت المعارك باستيلاء أكبر على قلاع شيتور ، وكالينجار وأجمير .

وبذلك أصبحت راجبوتانا إمارة من الإمارات الإمبراطورية المغولية . وبدأ أكبر بعد انضمام معظم الراجبوت إلى جانبه يتفرغ لتحقيق بقية أطماعه فى الأقاليم المجاورة الأخرى .

جوجرات :

كان استيلاء همايون على إقليم جوجرات استيلاء مؤقتا ، ولهذا بدأ أكبر يعمل لاستعادة هذه الولاية المفقودة وضمها ثانية إلى الإمبراطورية المغولية ، وخاصة أنها قد أصبحت فى عهده ملجأ لكل القواد الثائرين والرؤساء العصاة ، فلجأ إليها الأزابكة وأمراء المغول ، وفيها قامت ثورة خطيرة .

وأهم من هـــذا كله ،كانت جوجرات ولاية خصبة وفيرة الثراء ، وكانت تجارتها البحرية المزدهرة تجذب إليها أنظار الطامعين وفى مقدمتهم أكبر .

وقد حان الوقت المناسب ليعمل أكبر على استعادة هذه الولاية التى كانت يوما ما جزءا من ملك أبيه ، وذلك لأن جوجرات كانت تسودها عوامل الفوضى والاضطراب نتيجة للصراع القائم بين مظفر شاه الثانى والحكام الذين كان همايون قد أقامهم هناك إبان حكمه .

ولم يكن مظفر شاه ذا شخصية قوية بل كان ألعوبة فى أيدى رجال دولته . وأخيرا أرسل اعتماد خان وزير مظفر شاه يستنجد بأكبر ويطلب إليه القدوم لإنقاذ الولاية من الفوضى التى تسودها .

وخرج أكبر بجيشه لمقاتلة مظفر شـــاه الذى أسرع ـ عندما علم بوصول الإمبراطور إلى عاصمته أحمد أباد ـ بالاختفاء ، وقدم رؤساء جوجرات خضوعهم وولاءهم لأكبر . وعين أكبر أخاه حاكما على العاصمة أحمد أباد ، ثم اتجه لمحاصرة سورات التى لم تلبث أن سلمت .

ولم يكن أكبر قد رأى البحر من قبل . ولهذا انتهز الفرصة فقام برحلة إلى كامباى Cambay ونعم بنزهة قصيرة فى المحيط .

وهناك أيضا وفق أكبر صلاته بالبرتغاليين . وبعد أن أدخل بعض الإصلاحات الإدارية الضرورية فى هذا الإقليم عاد ثانية إلى فتح بور سكرى .

ولكنه لم يكد يغادر جوجرات حتى ثار حكام جوجرات ثورة خطيرة ، فأسرع أكبر بالعودة وقطع مسافة ستمائة ميـــل فى تسعة أيام إلى أن وصل إلى أحمد أباد . وكانت هذه العودة السريعة مفاجأة للثائرين ، ولهذا سرعان مامنوا بهزيمة نكراء ، وأعيد النظام والأمن إلى إقليم جوجرات . والحقيقة أن فتح

جوجرات يعتبر إيذانا ببدء عهد جديد فى حكم أكبر ، فقد بدأت الإمبراطورية المغولية بعد هذا الفتح تخطو نحو المجد والرفاهية خطوات واسعات، وذلك لأن إقليم جوجرات بدأ يقدم لخزانة الدولة إيرادا ضخما يقدر بنحو ٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠ روبية فى السنة . وكان من نتـــائج هذا الفتح أيضا أن بدأ السلطان يتصل بالبرتغاليين اتصالا مباشرا لأول مرة ، وقد كانت لهذه العلاقات بين أكبر والبرتغاليين آثار سياسية هامـــة على تاريخ هذا العصر . كذلك مهد فتح جوجرات السبيل لفتوح أخرى ، فقد اتخذت كقاعدة تقدمت منها جيوش أكبر لغزو المملكة الجنوبية فى الدكن ، كما أصبح غزو البنغال أمرا سهـــلا ميسورا .

٤ – البنغال :

كان سليمان كاراراني Suliman Kararani وقد أسس مملكة مستقلة فى البنغال فى سنة ١٥٦٤ ، وكان هذا الرجل حكيما فآثر الســـلامة ، واعترف لأكبر بحق السيادة على مملكته .

وبعد موته فى سنة ١٥٧٢ ، خلفه ابنه داود ، وكان عنيدا صلب الرأى ، فبدأ سياسة تختلف عن سياسة أبيه ، فأمر أن يخطب له على المنابر وأن تضرب السكة باسمه ، وبذلك أعلن استقلاله التام عن الإمبراطورية المغولية . وكان أكبر بعد فتح جوجرات قد مد حدود دولته فى الغرب إلى الشواطىء المقابلة ، وقد أتيحت له الفرصة عندما بدأ داود يهاجم حصون زمانيا Zamania فقاد أكبر جيشه بنفسه لمقاتلته واستطاع أن يهزمه فى أكثر من موقعة إلى أن اضطر داود أخيرا أن يعلن خضوعه للسلطان ، وأن يدفع له الجزية ، وبذلك ضمت البنغال إلى الإمبراطورية ، وعين منعم خان حاكما عليها . وتوفى منعم فى سنة ١٥٧٥م فعمل داود على استعادة ملكه المفقود ، ولكن أكبر أرسل إليه جيشا فهزم للمرة الثانية وحمل إلى أكبر فى سنة ١٥٧٦ .

٥ — كابل :

كان الكثيرون من المسلمين السنيين ، وخاصة فى الأقاليم الشرقية ، يتآمرون على السلطان ويعملون على خلعه وتولية أخيه الأصغر ميرزا محمد حكيم .

هذه المؤامرة وهذه الثورات التى كانت تتلاحق فى سرعة عجيبة فى مختلف الأقاليم شجعت ميرزا محمد حكيم ، فأقدم على إرسال حملتين متتاليتين لمهاجمة البنجاب . ولكن نصيبهما كان الفشل التام . ولم ييأس محمد حكيم ، بل خرج فى سنة ١٥٨١ على رأس جيش كبير يتكون من ١٥٠٠٠ جندى ، وقد حاول عبثا أن يغرى سكان الهند بالانضمام إليه . وقد استطاع أكبر أن يهزمه ، ثم تتبعه إلى مملكته واضطره إلى التسليم . ولكنه كان كعادته كريماً مع أخيه ، فسمح له أن يلى حكم كابل كإمارة تابعة للإمبراطورية المغوليه . وقد كان لفتح كابل نتائج كثيرة :

أهمها أنها كانت ضربة قاضية لثورات السنة الذين كانوا يطمعون فى تولية ميرزا حكيم حاكما على الهند لأنه كان سنياً مغالياً فى سنيته .

— ومنها أنها أنزلت الرعب فى أفئدة المتآمرين ، وبدأ الضعاف والمترددون يقبلون على أداء واجباتهم خوفاً من بطش السلطان .

— ومنها أن السلطان بدأ يحس بعد ضم كابل أنه تخلص من كل القيود التى تمنعه من إتمام إصلاحاته . ولهذا بدأ يعمل على تنفيذ مشروعه الدينى .

— ومنها أنها أزالت الحواجز التى كانت تمنع تدفق جنود الأفغان الشجعان إلى الهند ، وبذلك أتاحت للامبراطورية المغولية مورداً للقوى الحربية لا ينضب .

وآخر هذه النتائج أن هذا الفتح وضع حداً للغارات المتجددة التى كانت تهدد الهند من الشمال الغربى .

سياسة أكبر فى اقليم الحدود الشمالية الغربية :

كانت مشكلة الحدود الشمالية الغربية دائما موضوع عناية حكام الهند ، فقد كانت ذات آثار قوية فى السياستين الداخلية والخارجية جميعا .

ففى العصر الإسلامى الأول كان سلاطين الهند يتخذون دائما فى هذه المنطقة احتياطيات قوية ضد الغزو المغولى ، وكانوا يحصنون مملكتهم ببناء سلسلة من القلاع الحربية فى المواضع المعرضة للهجوم ، تقيم فيها المسلحات الدائمة والقواد الشجعان المحنكون .

لهذا لم يكن غريبا أن يفكر أكبر سلطان الهند جديا فى العناية بمنطقة الحدود الشمالية الغربية ، فبعد فتح كابل حاول إخضاع المنطقة القبلية ، وتوطئة لهذا نقل بلاطه إلى مدينة لاهور ، وظلت هذه المدينة مقر حكمه من سنة ١٥٨٥ إلى ١٥٩٨ ، وخلال هذه المدة كان يعمل دائما على اخضاع قبائل الأزبك وقبائل الأفغان .

أما الأزابكة ، فقد استطاعوا بزعامة قائدهم عبد الله أن يطردوا ميرزا سليمان من بدخشان وبدأوا يتجهون بأنظارهم نحو كابل ، وقد لقى عبد الله تأييداً كبيراً من الأفغان السنيين لكرههم الشديد لأكبر السلطان الملحد .

٦ ــ كشمير :

تم اخضاع كشمير سنة ١٥٨٦ دون أية صعوبة أو مقاومة جدية ، فقد نقل إلى السلطان أن حكام كشمير من المسلمين قد ارتكبوا بعض الفظائع فى معاملتهم لرعاياهم الذين كانوا فى معظمهم من الهندوك ، واستغل أكبر هذه الفرصة السانحة للتدخل فى شؤون هذه الإماره المستقلة ، وقد دفعه أيضا إلى الاهتمام بها ما تتمتع به من جو جميل ومناظر ساحرة .

وانتهز أكبر أثناء إقامته فى لاهور فرصة الفوضى الضاربة أطنابها فى كشمير وبدأ يعمل لضمها إلى ملكه، فأرسل قائديه : ميرزا شاه رخ Mirza Shah Rukh وراجا بهجوان داس Rajah Bhagwan Das لمقاتلة يوسف شاه ، حاكم كشمير وسرعان ما عقد الصلح بين الفريقين على أن يرسل يوسف شاه ولديه ليكونا رهينة عند السلطان أكبر ؛ غير أن أكبر لم يقبل هذه الشروط ، وأرسل جيشا ثانيـــا يقوده قاسم خان . واشتد ضغط الجيش المغولى على كشمير حتى اضطر يوسف شاه أن يعلن خضوعه ، ولكن ابنه يعقوب فر من المعركة واستأنف المقاومة إلى أن هزم واضطر هو كذلك إلى الاستسلام . وأكرم أكبر الحاكم وابنه ، وعين كلا منهما فى وظيفة منصبدار ، واعتبرت كشمير منذ ذلك الوقت إقليما من أقاليم إمارة كابل .

وفى سنة ١٥٨٩ زار أكبر كشمير ، وعهد بإدارتها إلى عدد من القواد المجربين ذوى مقدرة وخبرة ، وأصبحت كشمير تتخذ مصيفا للإمبراطور المغولى منذ ذلك الحين .

٧ — السند وبلوخستان :

كانت ملتان خاضعة لحكم المغول منذ سنة ١٥٧٤ ، وكان يعهد لحاكمها خانى خانان عبد الرحيم بالإشراف على فتح إقليمى السند وبلوخستان ، وكانا لا يزالان غير خاضعين لنفوذ الامبراطورية المغولية .

وقد هزم ميرزا جانى بك Mirza Jani Beg حاكم السند فى موقعتين ، واضطر فى سنة ١٥٩٢ أن يسلم قلعته فى سهوان Sahwan وولاية تتا ، وبفضل مساعى حاكم ملتان سمح لميرزا جانى بك أن يستعيد ولاية تتا ، كما عين قائداً على فرقة من ٥٠٠٠ جندى . وقدم جانى بك أكثر من دليل على ولائه وإخلاصه ، وأبدى مهارة فائقة فى معارك الدكن فيما بعد .

أما إمارة بلوخستان ، فقد ضمت إلى الإمبراطورية المغولية فى سنة ١٥٩٥ بعد معارك بسيطة .

٨ — قندهار :

وقد مهد الاستيلاء على السند وبلوخستان الطريق لفتح قندهار وضمها ، وكان أكبر سعيد الطالع كعادته ، فقد أرسل ميرزا مظفر حسين حاكم قندهار يستنجد به بعد أن اشتد عليه ضغط الترك والأزابكة ، وفى سنة ١٥٩٥ استولت جنود أكبر على قندهار دون قتال .

معركة الدكن

بالاستيلاء على كابل وكشمير والسند وبلوخستان وقندهار تم إخضاع كل أجزاء الهند الشمالية وأصبحت تكون دولة قوية مترابطة متحدة . ثم أتى دور الجنوب ، فقد كان أكبر يطمع دائما إلى ضم سلطنات الدكن الشيعية إلى إمبراطوريته ، وقد مكنته الأحوال المضطربة التى كانت تسود هذه السلطنات من أن يصيد فى الماء العكر . فقد كانت سلطنات أحمد نجار وبجابور Bijapur وجولكندا Golconda وبرار وبدار Bidar فى عداء مستمر ونزاع دائم بعضهم مع البعض الآخر .

لم يستسغ أكبر هذا كله ، وحاول فى أول الأمر أن يتبع الطرق الدبلوماسية ، فأرسل السفراء إلى أولئك السلاطين الشيعيين يطلب منهم الإعتراف بسيادته ، وأن يدفعوا له أتاوة سنوية . ولم يقبل هذه العروض غير ملك خاندش ، ورفضتها بقية السلطنات ، مما دفع أكبر إلى إعلان الحرب عليها .

٩ — أحمد نجار :

كانت ولاية أحمد نجار بحكم موقعها الجغرافى أولى الولايات التى أصابها

الهجوم ، وساعد على هذا أيضاً أن عرشها كان فى ذلك الحين موضوع نزاع بين اثنين من المتنافسين . وكان أحدهما قد أرسل يستنجد بالإمبراطور للغولى .

وأرسل أكبر إليها جيشاً كبيراً يشترك فى قيادته ابنه الأمير مراد وقائده خانى خانان عبد الرحيم . وقد حاصرا المدينة فى سنة ١٥٩٥ ، ودافعت المدينة دفاعاً مجيداً ، وقاومت تشاند سلطانه Chand Sultana مقاومة الأبطال . وتمكن المغول أخيراً من إحداث ثغرة فى استحكامات الدفاع ، ولكن تشاند سلطانه تقدمت فى الحال محجبة الوجه وهى تشهر السيف فى يدها واستطاعت أن تسد هذه الثغرة ، واضطرت قوات المغول — ولم يكونوا على اتفاق — إلى رفع الحصار. وعقد اتفاق مع السلطانه وبمقتضاه سلمت برار Berar إلى الإمبراطور ، واعترف ببهادر شاد الطفل الصغير الذى تكفله السلطانة ملكا على أحمد نجار .

وقامت بعد ذلك خصومات داخلية ، كان من نتيجتها أن قتلت تشاند سلطانه ، وحاول المتآمرون نقض المعاهدة واستعادة برار من المغول ، وبذلك أعلنت الحرب على أحمد نجار مرة ثانية .

وفى فبراير سنة ١٥٩٧ ، قامت معارك خطيرة بين الفريقين ، وكانت الحرب سجالا بينهما . وساد الاضطراب فى معسكر المغول حتى اضطر الإمبراطور أن يرسل إلى الميدان صديقه ومستشاره المخلص أبو الفضل . ووصل أبو الفضل إلى المعسكر بعد أن كان مراد قد توفى متأثراً بإدمانه على الشرب .

وفى سنة ١٦٠٠ ، خرج الإمبراطور بنفسه متجهاً إلى أحمد نجار ، واستولى فى الحال على برهانبور ، واتجه الأمير دانيال وخانى خانان عبد الرحيم لحصار أحمد نجار . وافتقد سكان المدينة وجنودها بطلتهم تشاند سلطانه وروحها الموجهة وبطولتها واستماتتها فى الدفاع والتضحية ، ولهذا سرعان ما هزموا ،

وقتل من الحامية ١٥٠٠ جندى أثناء الحصار ، وبذلك خضعت أحمد نجار وضمت إلى الإمبراطورية المغولية .

١٠ – خاندش :

ووصلت معركة الدكن إلى نهايتها فى سنة ١٦٠١ حين هوجمت أسير جـــره أحد قلاع خاندش وضمت إلى الإمبراطورية المغولية .

وقبل حصار أحمد نجار كانت خاندش قد أخضعت كما أسلفنا ، وكان حاكمها راجا على صديقا للإمبراطور ، ولكن السلطان الجديد ميران بهادر كان شابا عنيدا ، فشق الطاعة وأنكر تبعيته لأكبر ، وبدأ يتحصن فى قلعة أسير جرة . وخرج أكبر بنفسه لإخضاع مران بهادر ، وحاصر أسير جرة فى سنة ١٥٦١ . واستمر الحصار سبعة أشهر . ودافع المحاصرون دفاع الأبطال ، ولكن أكبر لجأ إلى رشوة بعضهم . وبهذه الطريقة وحدها استطاع إخضاع هذه القلعـــة ، وبسقوطها سقطت ولاية خاندش كلها .

وقسمت الفتوح الجنوبية إلى إمارات ثلاث : أحمدنجار ، وخاندش ، وبرار ، وعين الأمير دانيال حاكما عليها جميعا .

حدود الإمبراطورية المغولية فى عهد « أكبر »

فى سنة ١٥٥٦ ورث «أكبر» عرش الهند . فكانت مملكته مملكة مقسمة مفككة يحكمها حكام مختلفون من الهندوك ، ولكن عند موته ترك لخلفه إمبراطورية كبيرة مترابطة موحدة .

ففى سنة ١٦٠٥ ، كان أكبر الحاكم الوحيد لكل شمال الهند ، وامتد نفوذه فى الدكن إلى جودا فرى Godavari . وامتدت حدود إمبراطوريته فى
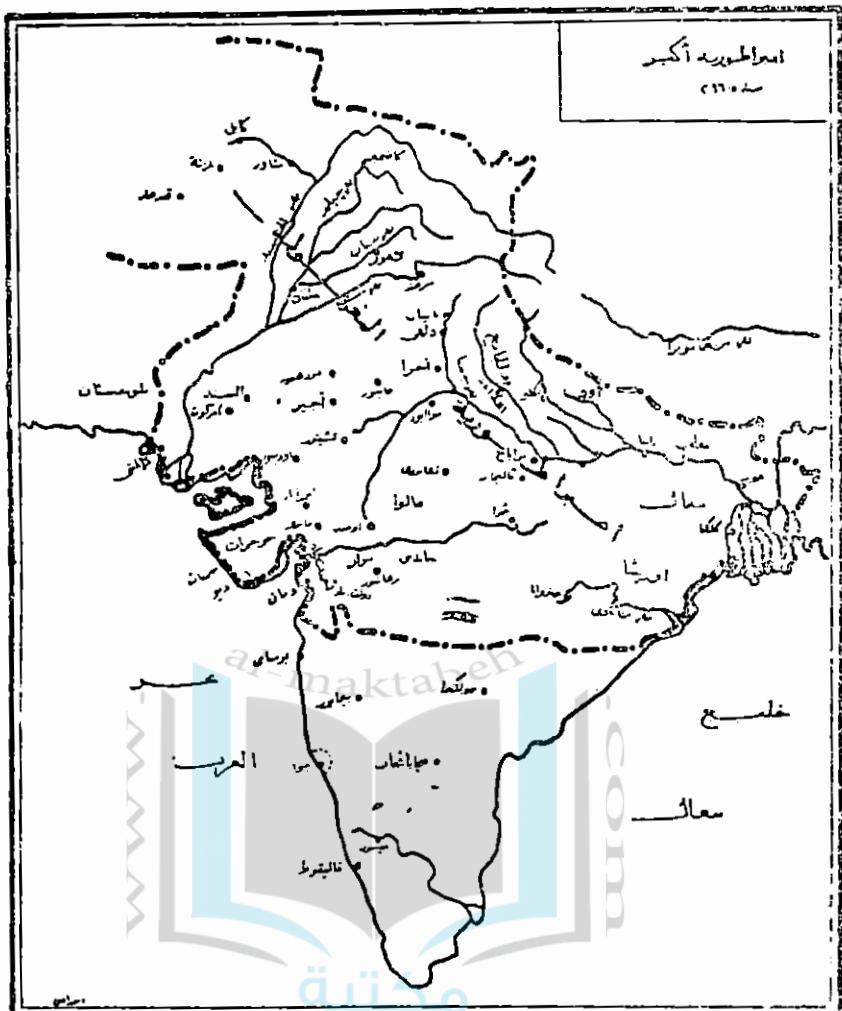
حدود الإمبراطورية المغولية فى عهد أكبر

الشمال إلى جبال الهملايا . كما كانت هذه الإمبراطورية تمتد من البحر إلى البحر وتضم ١٨ ولاية كبيرة هذا بيانها :

(١) دلهى	(٢) أجرا	(٣) أود Oudh
(٤) الله آباد	(٥) أجمير Ajmer	(٦) جوجرات
(٧) بنغال	(٨) بهار	(٩) أوريسا Orissa
(١٠) مالوا	(١١) السند	(١٢) ملتان
(١٣) لاهور	(١٤) كابل	(١٥) كشمير
(١٦) خاندش	(١٧) أحمد نجار	(١٨) جرار

وقد توفى « أكبر » بعد استيلائه على أسرجرة بمدة وجيزة . وإذا كان قد قدر له أن يمتد به العمر قليلا فقد كان فى عزمه أن يعمل على ضم الأجزاء الباقية من الهند إلى ملكه .

الأيام الأخيرة فى حياة « أكبر »

وقد سادت الأيام الأخيرة من حياة « أكبر » الأحزان والآلام ، وكان أبناؤه مصدر قلق كبير له ، فقد توفى ولداه مراد ودانيال فى سنة ١٥٩٩ و ١٦٠٤ على التعاقب متأثرين بإدمانهما على المسكرات ، وإن كان قد امتد به العمر فإنما يرجع هذا فى الغالب إلى بنيته القوية ، وقد أصبح سليم مثار قلق شديد لأبيه فى شيخوخته ، وفى سنة ١٦٠٠ — وبينما كان الإمبراطور مشغولا بمعاركه فى الدكن — ثار سليم ، وأقام لنفسه مملكة مستقلة فى الله أباد .

وفى سنة ١٦٠٢ ، أصيب الإمبراطور العجوز بصدمة قوية عندما علم أن سليما قد اتفق مع واحد من قطاع الطرق لقتل أبى الفضل ، ومع هذا فإن العلاقات قد تحسنت بين « أكبر » قبيل موته وبين ابنه فأعلنه وليا للعهد ، واحتفل بهذا

بوابة ضريح أكبر ـــ أجرا

الإعلان احتفالا مناسبا . غير أن الأمير سليم لم يكن محبوبا من الشعب ، ولهذا فقد حاول جماعة من الراجبوت الموجودين فى البلاط الإمبراطورى أن يجعلوا ولاية العهد للأمير خسرو بن سليم. ومع أن المؤامرة فشلت ، فقد سبب كثيرا من المتاعب للإمبراطور الشيخ وهو على شفا حفرة من الموت .

وفى سنة ١٦٠٥ ، أصيب « أكبر » بدوسنتاريا شديدة ، وعجز الأطباء عن علاجه ، وكان هذا المرض السبب فى وفاته ، ودفن فى ضريحه الذى كان قد بدأ بناءه فى سكندرا والذى أتمه فيما بعد ابنه جهانجير .

وفى عهد السلطان عالم جير (أورنجزيب) خرب الجات Jats هذا الضريح ، ونبشوه ، وأخرجوا عظام الإمبراطور العظيم « أكبر » وأحرقوها وذروها فى الهواء .

الفصل السادس

أكبر والدين الإلهي

أكبر الحاكم المتدين :

ولى « أكبر » العرش فى سنة ١٥٥٦ وهو فى الرابعة عشرة من عمره ، وظل يحكم الهند خمسين عاما ، وكان فى العشرين سنة الأولى من عمره مسلما سنيا كأحسن ما يكون المسلم السنى ، يحافظ على أصول الدين ، ويؤدى الصلوات فى المسجد وفى أوقاتها ، بل لقد كان يقوم أحيانا مقام المؤذنين فيدعو الناس للصلاة . وكان يحترم علماء الدين والمتصوفة الزاهدين ويجلهم ويؤثر صحبتهم ، فيقضى فى حضرتهم الساعات الطوال ، ولا يتردد فى إجابة مطالبهم مهما ضؤلت . وكان يحج فى كل عام لزيارة ضريح الشيخ الششتى فى مدينة أجمير ، فيطوف به عدة مرات ، ثم يجلس فى حضرته وقتا طويلا ، وقد سمى ابنه سليم باسم هذا الشيخ وهو الذى سيعرف فيما بعد باسم جهانجير .

وكان « أكبر » لا يبدأ عملا أو قولا إلا بدأه بقوله : « ياهادى يامعين » .

وكان لهاتين الكلمتين ـ فيما يقال ـ أثر السحر فى نفسه ، كما كانتا تثيران حماس أتباعه الشديد ، فكان جنود جيشه مسلمين وهنود إذا سمعوه يدعو هذا الدعاء يرددونه وراءه فى صوت جهورى ، ثم ينقضون على العدو دون خوف أو وجل .

وكان « أكبر » يعتقد فى الفقراء والمتصوفة ، ويزور زواياهم حافى القدمين فى أغلب الأحيان . وقد دفعته هذه الروح الدينية على الإقبال على دراسة القرآن والحديث وساعدته حافظته القوية على استيعاب كل ما يلقيه عليه أساتذته .

ولم يقتنع « أكبر » بهذا ، بل أصدر أوامره لتعيين القضاء والمفتيين فى كل جزء من أجـــزاء مملكته ليحكموا بين الناس بالعدل تبعـا لأصول الشريعة الإسلامية . وكان يستجيب لمشورة العلماء فى اضطهاد المتزندقة والملحدين. وكان أكبر يقرب إليه عددا من العلمـاء كانوا له بمثـابة الرواد يوجهونه ويثقفونه ، ومن أشهرهم بيرم خان ، وعبد الله مخدوم الملك ، والشيخ عبدون نبي .

ولكنه كان يؤثر الشيخ عبدون نبي بتقديره واحترامه وثقته حتى إنه عينه صدرا للدولة ، وكان يدعوه إلى حضرته يوميـــا حيث يجلس بين يديه ليتلقى دروسا فى الحديث .

عبادة خانه والتمهيد لإعلان الدين الإلهى :

هكذا بدأ « أكبر » ، وهكذا ظل طوال العشرين سنة الأولى من حكمه مسلما سنيا متدينا مخلصا لعقيدته ، مما جمع قلوب السنة من مسلمى الهند على حبه وتأييده . ولكنه انقلب فجأة إلى رجل حر التفكير ، ونفض عن عقله وروحه هـــذا الإخلاص القديم ، وبدأ يفكر فى إيجاد دين جديد . فبدأ فى سنة ١٥٧٥ بإنشاء دار خاصة فى فاتحبور سكرى « عبادة خانه » ، ودعا الفقهـاء والعلماء من السنة والشيعة مساء كل خميس لحضور هذه الدار ، ومناقشة المذاهب فى حضرته ، بغية التقريب بين الآراء المختلفة ، وتوحيد الإسلام فى مذهب واحد . ولكن هذه المناقشات لم تأت بالنتيجة المطلوبة ، بل على العكس وسعت الشقـــة ، وزاد فى عوامل الخلاف ، وراح كل فريق منهم يتهم الفريق الآخر بالكفر والمروق .

وفى إحدى أمسيات الخميس فى سنة ١٥٧٨ ، اشتد النقاش بين العلماء ، حتى لقد وصم بعضهم البعض الآخر بالكفر فى حضرة السلطان . ولم يكن هناك أمل فى تآليف العلماء ـ وهو الهدف الذى كان يرمى إلى تحقيقه « أكبر » ـ وعند ذلك ألقى على الحاضرين سؤال عام :

« من يكون صاحب الحق فى إصدار الفتاوى والأوامر الدينيـــة الواجب اتباعها إذا اشتد الخلاف بين الفقهاء ؟ » .

وتقدم واحد من الحضور . وهو الشيخ مبارك ، وقال « إن السلطان يكون صاحب هذا الحق » .

وتنفيذاً لهـــذا الاقتراح ، كتب محضر لإعلان « أكبر » إمامى عادل Imami Adel ، أى إماما عادلا ، ووقع على هذا المحضر العلماء والفقهاء فى رجب من سنة ٩٨٧ هـ ، ومن بينهم مخدوم الملك وعبدون نبى ، ووقع عليها بالموافقة كذلك الإمبراطور « أكبر » .

هذه الوثيقة وضعت السلطة كلها فى يدى « أكبر » ورفعته إلى مرتبة أعلى من مرتبة المجتهد وهى مرتبة الإمام العادل ، وأصبح « أكبر » بذلك الحـــاكم المطلق ، على أن يكون عماد حكمه الرجوع إلى القرآن والسنة والقياس . وأهم من هذا أن هذه الوثيقة جعلت لأكبر – إلى جانب سلطاته الزمنية – السلطان الروحى على رعاياه ، وبالتالى سلب العلماء هذا السلطان ولم يعد لهم الحق فى أن يتدخلوا فى شئون الحكم .

اعلان الدين الالهى :

وبعد قليل خطا « أكبر » خطوة أخرى أشد جرأة . فبدأ يفكر فى وسيلة تمكنه من توحيد المجتمعين الإسلامى والهندى ليقل الخـــلاف بين رعاياه . وليصبحوا أكثر توائما وانسجاما . وهداه تفكيره إلى إنشاء دين جديد يجمع أصول الديانتين الإسلامية والهندية ومحاسنهما . ولم يسمح حتى ذلك الحـــين بدخول عبادتخانة إلا لعلمائه المسلمين . فبدأ أكبر بدعوة علماء الأديان الأخرى لهذه الدار والمشاركة فى النقاش والجدل الدينى يدافع كل عن فريقه وعن دينه

ويبدى محاسنه . وبعد هذه التمهيدات ، دعا السلطان إلى اجتماع عام حضره كبار العلماء من كل دين ، وقادة الجيش ، وفيه تحدث السلطان عن الأضرار التى تعود على المجتمع من كثرة الأديان وتعددها ، وأعلن عن ضرورة إيجاد دين واحد يضم محاسن الأديان المختلفة الموجودة فى الهند ويعتنقه الجميع ، وبهذا - كما قال - يمكن تقديس الخالق ، ويمكن للسلام والرفاهية أن يسودا بين الناس ، وأن يشمل الأمن الدولة .

ولقد سمى « أكبر » هذا الدين الجديد (دين الهى Din - Ilahi) أى الدين الإلهى ، وتتلخص أصوله فى : توحيد الله ، وهو حجر الزاوية فى الإسلام ، وتقوم طقوسه على أسس من الصوفية المستمدة من الديانتين الهندوكية والزرادشتية ، وفرض على أتباع هذا الدين أن يؤمنوا بوحدانية الله ، وبأن « أكبر » خليفته على الأرض ، وأن يقدموا لجلالته أربعة أشياء : الثروة والحياة والشرف والدين . وفرض عليهم أيضا أن يمتنعوا عن أكل اللحوم بجميع أصنافها ، وأن يسجدوا للإمبراطور .

ومن طقوس هذا الدين الجديد : تقديس الشمس والنار ، وحدد يوم الأحد ليكون يوم الاحتفال بدخول الناس فى الدين الجديد . وفيه يتسلمون من صاحب الجلالة « الإسم الأعظم » وشعار الدين الجديد وهو « الله أكبر » .

ووضع للدين الإلهى تحية جديدة تحل محل تحية الإسلام « السلام عليكم » وردها « وعليكم السلام » ، وجعل التحية الجديدة « الله أكبر » وردها « جل جلاله » .

وبين الحين والحين كان الإمبراطور يصدر لأتباع دينه الجديد بعض التنظيمات واللوائح الجديدة . .

الدين الالهى بين مؤيديه ومعارضيه :

فالدين الجديد - كما يتضح من هذه القواعد والأسس - يعكس أهداف الإمبراطور الذى كان يرمى من ورائها إلى توحيد الأجناس الهندية المختلفة تحت راية دين واحد وعقيدة واحدة ، فالروح التى دفعت أكبر إلى ابتداع هذا الدين هى روح الحاكم المصلح الذى يريد أن يزيل الفوارق بين رعاياه والذى يعتقد أنه كلما زادت عوامل الألفة والوحدة بين الشعب كلما أدى هذا إلى قوة الدولة وأمنها واستقرارها .

وإذا نحن نظرنا إلى هذا الدين الجديد نظرة فاحصة ، وجدنا أنه اقتبس الروح من الإسلام ، بينما صاغ الجسم من الهندركية والزرداشتية .

فالروح التى تتمثل فى وحدانية الله مأخوذة عن الإسلام : والجسم الذى يتمثل فى الطقوس المختلفة مأخوذة عن الديانتين الأخريين . ولم ينس الدين الجديد أن يرضى المسيحيين ، فجعل يوم احد يوم التدشين للداخلين فيه أو المؤمنين الجدد ، وبذلك خرج هذا الدين الإلهى الجديد وهو يمثل جميع الأديان الموجودة فى الهند ، فهو دين عالمى هندى ، فيه ما يرضى وفيه ما يجذب أتباع كل دين آخر .

وقد اختلف المؤرخون فى تقديرهم لهذا الدين الجديد ، فأعجب به الكثيرون من الغربيين ، ورأوا فيه بشير نهضة أو حركة إحياء هندية كبرى ، وقالوا فى مجال الدفاع عن « أكبر » : « إننا لكى نحسن فهمه وفهم دينه الجديد ، يجب أن ننظر إليه على أنه حاكم مصلح مجدد منشىء لإمبراطورية قوية ، لا على أنه نبى أو رسول جاء يبشر بدين جديد ، فالعقيدة التى دعا لها لم تكن هدفاً فى حد ذاتها ، وإنما كانت وسيلة لهدف أكبر ، وهو التوحيد بين طوائف الشعب لتكوين هند قوية موحدة » .

وأما معارضوه فهم كثر ، بعضهم من الغربيين ، والغالبية من المسلمين ، وخاصة من مسلمي الهند ـ معاصرين وغير معاصرين ـ ، وهؤلاء لا ينظرون إلى الدين الجديد باعتبار أنه دين أولا ، وهكذا سماه صاحبه ، ويحكمون على « أكبر » باعتباره ملكا مسلماً دعا إلى دين جديد معظم ما فيه لا يقره الإسلام بل يعتبره مروقاً وإلحاداً وكفراً .

يقول سميث Smith أحد الغربيين الذين أرخو لأكبر : « كان الدين الإلهي دليلا على حماقة أكبر » ، ويسمى هذا الدين فى مكان آخر من كتابه : « بالاختراع السخيف » .

أما رأى المجتمع الهندى الإسلامى فى الدين الإلهى فيمثله خير تمثيل ما كتبه المؤرخ المعاصر « بداؤنى Badaoni » . لقد اعتبر هذا الكاتب ـ وكان محقاً فى رأيه ـ الدين الإلهى كفراً وإلحاداً ، وأحصى النواحى التى خرج فيها عن الإسلام فى النقط الآتية :

١ ـ أباح السجود للإمبراطور ، والإسلام يمنع السجود إلا لله سبحانه وتعالى .

٢ ـ دعا إلى عبادة أو تقديس الشمس والنار ، وفى هذا رجوع للوثنية القديمة .

٣ ـ سمح بوضع الخلاليف فى القصر الإمبراطورى ، واعتبر النظر إليها كل صباح عملا يستحق التقدير ، والإسلام يحرم أكل لحم الخنزير وبالتالى يحض على كراهيته .

٤ ـ حرم أكل لحم البقر والثوم والبصل وهذه أشياء أحلها الإسلام ، كما حرم تربية اللحى ، وقد كانت اللحى الشعار المميز للمسلمين فى الهند فى ذلك الحين ، لأن الهندوكيين كانو يحلقون لحاهم .

٥ ـ نفى عدداً كبيراً من الملا Mullahs ، أى علماء المسلمين وشيوخهم .

٦ ـ منع ختان الأطفال قبل سن الثانية عشرة ، وزواج البنات قبل سن البلوغ .

٧ ـ حارب دراسة اللغة العربية .

٨ ـ منع الآذان والصلوات الجامعة .

٩ ـ أمر بتغيير الأسماء الإسلامية من أمثال محمد وأحمد ومصطفى لأنها تسبب الضيق للإمبراطور .

١٠ ـ أوقف الحج إلى مكة وصيام شهر رمضان .

١١ ـ حرم دراسة القرآن والحديث .

١٢ ـ أمر بأن تحول المساجد والجوامع إلى مخازن وأماكن للحراسة .

ويختم بداؤنى نقده بقوله : « إن الإسلام بهذا قد هدمت أركانه وأنقض بنيانه ، ولم يمض غير خمس أو ست سنوات حتى انقلب كل شىء رأساً على عقب ولم يبق فى نفس « أكبر » أثر ضئيل من دينه القديم القويم الإسلام ، بل اتمد أبدى مظاهر العداء الشديد للدين الذى آمن به فى شبابه والذى آمن به أسلافه من قبل » .

وهكذا يعتبر بداؤنى ـ ويوافقه فى هذا سميث ـ سنة ١٥٨٢ ، وهى السنة التى أعلن فيها الدين الإلهى ، حدا فاصلا فى حياة « أكبر » . ويريان أن « أكبر » لا يمكن اعتباره مسلما بعد هذه السنة .

ولم تكن التغييرات التى أحدثها « أكبر » مقصورة على الدين وحده ، بل أحدث تغييرات أخرى تؤذى شعور المسلم ، لأنها ذات صلة وثيقة بالتشريع أو النظام الإسلامى ، فقد تزوج أكبر من بنات أمراء الهندوك ليرتبط وإياهم برابطة ولاء النسب ، غير أنه سمح لأولئك الزوجات بالاحتفاظ بدياناتهن وبالقيام

بشعائر هذه الأديان داخل القصر الإمبراطورى . كما أنه استبدل بالتقويم الهجرى تقويماً جديداً أسماه التقويم الإلهى ، يبتدىء بسنة جلوسه على العرش وجعل شعار أتباعه « الله أكبر » وكان يعنى به أن « أكبر » هو الله .

هذه الحركة هزت المجتمع الإسلامى فى الهند هزة عنيفة ، غير أن كل من عارضها أو قاومها من العلماء كان نصيبه النفى والاضطهاد والتشريد . ومع هذا فقد لقيت الحركة تأييداً من بعض العلماء المسلمين الذين كانوا يبتغون الوسيلة والقربى إلى السلطان . والحقيقة أنه لولا تأييد هذا النفر من العلماء لما استطاع « أكبر » أن يقيم دعائم دينه الجديد ، وفى هذا يقول أحمد سرهندى :

« ومما لا مجال فيه للشك أن كل ما وقع من المداهنة والتخاذل فى الأحكام الشرعية فى هذا الزمان ، وما ظهر من الفساد والوهم فى نشر الدعوة الالهية وإبقاء مآثرها فى هذا العصر ، إنما يرجع سببه إلى علماء السوء الذين هم لصوص الدين وشر من تحت أديم السماء ، أولئك حزب الشيطان ، ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون » .

ومع هذا ، فإن نفراً من العلماء الآخرين المخلصين الثابتين على إيمانهم المتمسكين بدينهم ، عارضوا الدين الإلهى معارضة عنيفة ، وكان على رأس هؤلاء هذا العالم الذى اقتبسنا قوله الآن السيد أحمد سرهندى ، فقام هذا الرجل بحركة تجديدية مضادة ، تعتبر فى الواقع رد فعل لحركة « أكبر » الالحادية .

الفصل السابع

أحمد سرهندي

(٩٧١ — ١٠٣٤ هـ / ١٥٦٤ — ١٦٢٥ م)

ويعرف أحمد سرهندى باسم « مجددى ألفى ثانى » أى مجدد الألف الثانية ، أو هو واحد من كبار المسلمين والمتصوفة الذين برزوا فى تاريخ الهند ، وقد بذلوا جهودا كبيرة فى سبيل تجديد الإسلام وتنقيته من الشوائب التى لصقت به وخاصة بعد حركة الهرطقة والمروق التى كان قد أبداها الإمبراطور « أكبر » (١٥٥٦ - ١٦٠٥) .

حياته الأولى :

ولد أحمد فى مدينة سرهندى (إحدى مدن ولاية بتيالا Patiala فى شرقى البنجاب) فى سنة ٩٧١ هـ (١٥٦٤ م) ، ووالده الشيخ عبد الأحد ينتهى نسبه إلى الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ، وقد تلقى أحمد علومه الأولى على والده ، ثم أتم دراسته بعد ذلك فى مدينة سيالكوت Siyalkot .

واتجه أحمد بعد ذلك إلى العاصمة أجرا حيث كان دائم التردد على مجالس الوزير الأول أبى الفضل وأخيه فيضى ، وهما من العلماء البارزين فى ذلك الوقت ، ويرجح مؤرخوه أنه كتب فى هذه الفترة رسالته الصغيرة التى سماها الرسالة التهليلية » فى نقد المذهب الشيعى (وقد ترجم هذه الرسالة فيما بعد إلى العربية شاه ولى الله دهلوى ، وألحق بها مقدمة تحدث فيها عن التيارات الدينية فى بلاط الملك « أكبر » ، وعن نشاط الشيخ أحمد) .

وبعد سنوات قليلة عاد إلى مدينة سرهند ، وفى سنة ١٠٠٨ هـ دخل فى الطريقة النقشبندية بعد أن أخذ العهـــد على أحد شيوخها وهو الخواجة باقى بالله (ت ١٠١٢ هـ) الذى كان يقيم فى مدينة دلهى فى ذلك الوقت .

أحمد سرهندى وجهانجير :

نشأ أحمد سرهندى فى الربع الأخير من القرن العاشر للهجرة (١٦م) فى نفس الوقت الذى كان « أكبر » يدعو فيه لدينه الجديد ، فأخذ يرقب الأحوال ، وبدأ ينظم حركة واسعة لمعارضة هذه الحركة الإلحادية . وبث أتباعه ومريديه فى أنحاء البلاد ، وكتب إلى قواد الجيش وكبار الموظفين ممن يأنس فيهم الرشد والإسلام الصحيح ينبههم إلى هذا الخطر الداهم ، ويحذرهم عاقبة هذه الفتنة العمياء ، وما قد يكون لها من آثار خطيرة على الإسلام والمسلمين فى الهند .

ولم تظهر آثار دعوته إلا بعد موت « أكبر » ، وفى عهد ابنه جهان جير (١٠١٤ هـ - ١٠٣٧ هـ) ، فقد سار هذا الإبن على نهج أبيه واضطهد علماء السنة ونكل بهم ، وقرب إليه علماء الشيعة واتخذهم بطانة له .

وعندما اشتد حماس الشيخ أحمد فى معارضة الدين الإلهى وما خلفه من آثار وفى مناهضة المذهب الشيعى ، وعندما نشط هو وأتباعه فى دعوتهم التجديدية لمحاربة البدع والعودة بالإسلام إلى أصوله الأولى ، غضب عليه جهان جير بإيعاز علماء الشيعة ورجال القصر ، واعتبر نشاطه خطرا على الدولة والعرش ، وأمر بالقبض عليه ، وسجنه فى حصن جوالبور ، ولكنه سرعان ما عفا عنه ، وأمر بإطلاق سراحه ، وخلع عليه ، ووصله بمبلغ من المال .

وقد اختلفت الروايات عند ذكر الأسباب التى دفعت الإمبراطور إلى ذلك فيروى أنه رأى فيما يرى النائم أن الشيخ أحمد قد ظلم ، وأن رجلا صالحا يقول له وهو عاض على يديه :

« ويحك قد حبست رجلا لا ترى مثله فى الصلاح والورع » .

وتقول رواية أخرى - وهى أقرب إلى الصحة - إنه لم يمض على دخول الشيخ أحمد السجن إلا أيام قليلة ، حتى تغير الحال غير الحال ، وأخذ الرجل ينفث من روحه بين المسجونين والجناة من القتلة والسارقين ويلقى عليهم مواعظه ، فإذا بهم بين يوم وليلة قد انقلبوا خلقا آخر ، وبدأوا يأتمرون بأوامر الشيخ فى ذلة وخشوع ، ويؤدون فروضهم الدينية فى أوقاتها وفى حرص شديد ، مما أثار عجب مدير السجن وإعجابه ، فكتب إلى الإمبراطور يقول له : « إن هذا السجين - الشيخ أحمد - ليس كغيره من نزلاء السجن ، وإنما هو فى الحقيقة ملك قلما يأتى الدهر بمثله ، فإن وافق السلطان أطلقنا سراحه وأكرمناه بما يستحقه » .

عند ذلك ندم جهانجير على ما صدر منه فى حق الشيخ أحمد ، وأمر فى الحال باحضاره إلى قصره فى أجرا ، ولما علم بقربه من العاصمة ، أرسل ابنه وولى عهده الأمير خرم - شاه جهان فيما بعد - لاستقباله والترحيب به . ولما دخل الشيخ أحمد على الإمبراطور حياه وحيا حاشيته بتحية الإسلام ولم يسجد له ، فحفظها الإمبراطور فى نفسه ، وتلقاه رغم هذا بالترحاب ، وأبقاه معه فى القصر لينتفع بنصائحه .

نجاح حركة السيد أحمد التجديدية :

وكان لبقاء الشيخ فى القصر آثار طيبة ، فقد استطاع أن يقنع الإمبراطور بإلغاء كثير من البدع التى استحدثها أبوه « أكبر » ، فأصدر بعد قليل أمرا ملكيا نص فيه على ما يأتى :

(١) - تحريم السجود للملك .

(٢) - إباحة ذبح البقر وأكل لحمه .

(٣) - إعادة بناء المساجد المهدمة .

(٤) - إبطال قوانين المعارضة للشريعة الإسلامية .

(٥) - تعيين القضاة والمحتسبين فى مختلف المدن الهندية .

وبذلك أتت حركة الشيخ أحمد التجديدية أكلها ، وعاد للمجتمع الإسلامى فى الهند اطمئنانه ، وانتهت حركة الاضطهاد لعلماء السنة ، وبدأ المسلمون يحسون الحرية التامة فى القيام بشعائر دينهم .

مؤلفات السيد أحمد المجددى :

وقد كتب الشيخ أحمد جملة من الرسائل فى موضوعات دينية مختلفة ، ومنها :

— المبدأ والمعاد (دلهى ١٣١١ ه) .

— رسالة تهليلية ، وقد طبعت ملحقة بمجموعة رسائله (مكتوبات) ، وطبعت فى لكنار .

— مكاشفات غيبية .

— معارف لدنيـــة .

— رسالة فى إثبات النبوة .

— آداب المريدين .

— شرح رباعيات أستاذه خواجة باقى بالله .

وأشهر آثاره الفكرية جميعا بمجموعة رسائله المعروفة باسم (مكتوبات) ، التى كتبها باللغـــة الفارسية وأسلها إلى تلاميذه ومريديه وبعض الشخصيات الأخرى المعاصرة لشرح كثير من الموضوعات الإسلامية التى كانت موضع جدل ومناقشة ، ولا زالت هذه المكتوبات تحتل حتى اليوم مكانها الجدير بها بين أهم ماخلفه الفكر الإسلامى فى الهند من تراث قديم .

السيد أحمد مجدد الألف الثانية :

وقد أطلق مولانا عبد الحكيم السيالكوتى بحق على الشيخ أحمد سرهندى لقب « مجددى ألفى ثانى » أى مجدد الألف الثانية ، وذلك تحقيقا للحديث الشريف الذى يقول :

« إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » .

وقد عنى المسلمون فى مختلف الأقطار الإسلامية بهذا الحديث كلما تأخرت بلادهم أو انتشرت فيها البدع المستحدثة ، فكانوا ينظرون إلى الوراء ويرون أن لا صلاح لحاضرهم إلا بالعودة إلى ما كان عليه النبى والصحابة فى العصر الإسلامى الأول ، وبالعودة إلى أصول الإسلام ومنابعه الحقيقية من قرآن وسنة. وكانوا دائما يحصون أسماء من ظهر من المجددين على رأس المئين الماضية ، ويرتقبون ظهور المجدد الجديد . وقد كتب السيوطى أرجوزة أحصى فيها المجددين إلى القرن التاسع الهجرى وسماها « تحفة المهتدين بأخبار المجددين » ، وجعل نفسه فيها المجدد للقرن التاسع وقال :

هذه تاسعة المئين قد ∴ أتت ، ولا يخلف ما الهادى وعد

وقد رجوت أننى المجدد ∴ فيها ، فضل الله ليس يجحد

ونتيجة للجهود الطيبة التى بذلها الشيخ أحمد سرهندى لمحاربة البدع المستحدثة ولتجديد الاسلام وتخليصه من الشوائب التى علقت به ، اعتبره معاصروه بحق مجدد الألف الثانية أى مجدد المائة الحادية عشرة ، وقد ذاع صيته وانتشرت طريقته وآراؤه خارج حدود الهند فى أفغانستان وفى أواسط آسيا .

وفاته :

وتوفى الشيخ أحمد المجددى فى سنة ١٠٣٤ ﻫ (١٦٢٤ م) ، ودفن فى مدينة سرهندى ، ولا يزل الناس حتى اليوم يتوافدون على قبره لزيارته والتماس البركة فى رحابه . وقد ازدادت شهرته ذيوعا ، وكثر تلاميذه وأتباع طريقته بعد وفاته ، وهم الذين يعرفون حتى اليوم باسم المجددية . ومما ساعد على انتشار تلاميذه وكثرة عددهم الأحوال النسيئة الناجمة بعد ذلك عن سيادة السيخ وسيطرتهم على إقليم البنجاب .

الجديد فى طريقة الشيخ أحمد :

ومع أن الشيخ اتصل منذ شبابه بكثير من الطرق الصوفية المعروفة على عهده ـ وخاصة الطريقة النقشبندية ـ فقد تحاشى الكثير من مغالاتهم ولا سيما نزعاتهم وأفكارهم القائلة بوحدة الوجود. ثم حاول فى طريقته أن يقرب بين فريقى الصوفية القائلين بفكرة التوحيد ووحدة الوجود ، وقال هو بالأخذ بفكرة وحدة الشهود بدلا من فكرة وحدة الوجود ، وذلك لأنه لاحظ أن الكثير من المتصوفة فى عصره قد تأثروا بفلسفة البراهمة وأخذوا بكثير من عقائدهم وأفكارهم كوحدة الوجود والحلول والاتحاد وغيرها ، ولذلك ركز الكثير من جهوده لتقييد الآراء والرد عليها ، وخاصة آراء محي الدين بن عربى فى وحدة الوجود والذى يدعو فيها لفكرة وحدة الشهود. وبهذا نستطيع أن نقول إن هذه الفكرة تعتبر بحق الشىء الجديد الذى قدمه الشيخ المجدد للعالم والفكر الإسلامى الدينى .

جهود الشيخ أحمد فى اصلاح المجتمع الاسلامى فى الهند :

ولم تقتصر جهود الشيخ المجدد على هذا ، بل لابد أن نذكر له مساعيه الحميدة لإصلاح شأن الحكومة ورجالها . فقد كان يعتقد أنهم القدوة وأنهم إذا صلحوا

صلحت الرعية ، وإذا فسدوا فسد المجتمع الذى يقومون على شئونه كذلك.
وكان الشيخ المجدد يعتقد أن الكثير من الفساد القائم ترجع أسبابه إلى العلماء الذين تهافتوا على الدنيا وعلى إرضاء السلطان ، ولهذا بذل الكثير من جهوده لمحاربة هذا الصنف من العلماء ومناهضة بدعهم والرد عليها . ولقد كانت حركة أحمد سرهندى فى الواقع عميقة الأثر فى المجتمع الهندى الإسلامى ، فقد تأثر بها الكثيرون بعده ، وكانت ممهدة لحركة تجديدية أخرى قام بها مجدد ثان فى القرن الثامن عشر ، هو العالم الهندى الكبير شاه ولى الله هلوى .

الفصل الثامن

نور الدين محمد جهانجير

هو سليم بن أكبر ، وقد ولد فى مدينة أجرا فى اليوم الثلاثين من أغسطس سنة ١٥٦٩ ، وكان قوى البنية مليح الوجـــه متناسق الأعضاء ، وقد تثقف بالثقافتين الفارسية والتركية ، كما حصل كثيراً من المعارف الهندية ، فكان يطرب لأغانى الهنود ، واشتهر فوق هذا وذاك بالشجاعة والجرأة .

شارك سليم فى الأحداث السياسية فى سن مبكرة ، فقد عـين فى منصب قائد لعشرة آلاف وهو بعد فى التاسعة من عمره . وعندما بلغ السادسة عشرة رقى إلى منصب قائد لاثنى عشر ألفاً ، وفى هذه السن أيضاً ـ أى فى سنة ١٥٨٥ ـ تزوج سليم من إبنة راجا أمبر Raja of Amber .

وفى سنة ١٦٠٥ ـ خلف أباه على العرش . ولقب بلقب « الباد شاه الغازى نور الدين محمد جهانجير » . وقد وعد منذ اللحظة الأولى أن يعمل عـلى حماية الإسلام ورفعة شأنه ، فأبطل كثيراً من المكوس التى كانت تثقل كاهل الشعب ، وأمر بصنع سلسلة من الذهب تتصل بعدد من الأجراس فى غرفته تحمل إليه إذا دقت ملتمس كل مظلوم أو صاحب شكاية .

ثورة الأمير خسرو ومؤنه :

وكان الأمير خسرو الإبن الأكبر لجهانجير ينافس أباه فى الملك ، فقد التف حوله فى آخر أيام « أكبر » عدد من الأمراء ورشحوه لتولى عرش المغول بعد جده ، ولكنهم لم يوفقوا فى مسعاهم . ومع هذا ، فقد أتى خسرو إلى القصر ،

بعد تولى جهانجير العرش ، فأكرمه أبوه . ولكنه لم ينس له مسعاه السابق ، فأمره أن يقيم فى قلعة أجرا والعيون ترقبه .

وفى أبريل سنة ١٦٠٦ تمكن خسرو من الفـــرار ، وقصد إلى البنجاب ، واستطاع بمساعدة بعض الحكام أن يكون جيشاً من ١٢٠٠٠ جندى وأن يتقدم لحصار مدينة لاهور .

وأرسل جهانجير جيشاً آخر لمقاتلة إبنه . وهزم خسرو ، وحاول الهرب ، ولكنه قبض عليه ، وحمل إلى الأسر ، وبقى فيه إلى أن مرض ومات فى سنة ١٦٢٢ .

أعمـاله الحربيـــة

١ — البنغال :

وقام الأفغان بثورات فى إقليم البنجاب تحت زعامة قائدهم عثمان خان ، ولكن الحاكم المغولى الشاب إسلام خان استطاع بمهارته الحربية الفائقة أن يخضع هذه الثورات وأن يحرز انتصارات حاسمة فى سنة ١٦١٢ . وبعد هذا النصر انكسرت شوكة الأفغان الذين دأبوا على مقاومة المغول منذ عهد بابر ، واستطاع جهانجير بلباقته وسياسته الحكيمة أن يصطنع المنهزمين ، فسمح لهم بالانخراط فى سلك الجيش الرسمى للدولة ، ونجح جهانجير فى هـذه السياسة ، واكتسب صداقة الأفغان ، وبذلك أمنت الدولة شرهم .

٢ — موار :

وفى سنة ١٦٠٨ ، أرسل الإمبراطور قائده محبة خان إلى موار ، واستطاع هذا أن يطارد العدو ويدفعه إلى الالتجاء إلى التلال والمرتفعات . ولكنه لم يحرز نصراً حاسماً ، فاضطر جهانجير أن يرسل الأمير خرم لإتمـام القتال ، فاستطاع

جهانجیر محل — قلعۂ آجرا
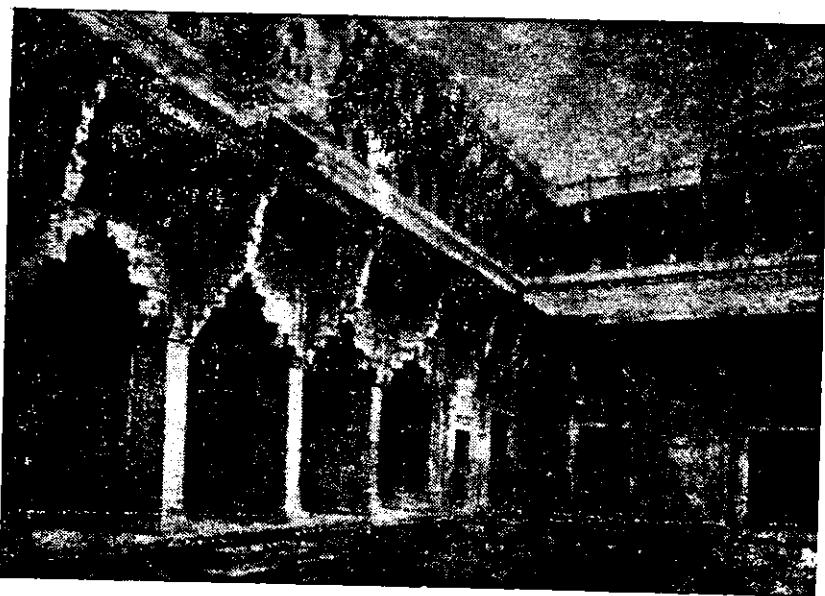
بمهارته أن يحرز أكثر من نصر ، وأن يتبع الراجبوت فى فرارهم ، وأن يأسر عائلات كثيرة من قوادهم . واضطر الرانا نفسه أخيراً أن يطلب إيقاف القتال ، وأن يعلن خضوعه لنفوذ المغول ، ولكنه اشترط أن يعفى من المثول بين يدى الإمبراطور ؛ فأجيب إلى طلبه ، كما وافق على أن يقدم للدولة فرقة من ألف حصان وألا تقام أية تحصينات بعد ذلك فى مدينة تشيتور Chitor ، وقد أجابه جهانجير إلى كل هذه الشروط .

٣ — قندهار :

وقد انتهز الشاه عباس ملك فارس فرصة ضعف قندهار وتقدم لحصارها . واستولى عليها فى سنة ١٦٢٢ . وقد ضاعت الاستعدادات الضخمة التى أعدها جهانجير لاستعادتها هباء ، لأن شاه جهان رفض أن يطيع قرار والده ويقود الجيش المعد لمقاتلة قندهار ، بل وقام بثورة ضد أبيه .

٤ — الدكن :

وقد تابع جهانجير منذ تولية العرش سياسة أبيه التوسعية فى الدكن . وقد استمرت حروبه المتتابعة ضد مملكة أحمد نجر طول عهده ، وعين الأمير خرم قائداً لجيوش الدكن ، فاستولى على مدينة برهانبور ودخلها فى شهر مارس سنة ١٦١٧ . واستطاع بمعاونة قواد محنكين ، مثل خان خانان وخان جهان ومحبة خان ، أن يجبر عادل شاه على قبول الشروط التى أملاها الإمبراطور ، وانتهى الأمر بأن سلمت مفاتيح قلعة أحمد نجر إلى الأمير خرم ، وقد أجزل الامبراطور مكافأة ابنه ورقاه إلى رتبة قائد لثلاثين ألفاً ، وأضفى عليه لقب « شاه جهان » أى ملك العالم ، وسمح له أن يكون الرجل الوحيد الذى يجلس فى حضرته . ولم يكد شاه جهان يغادر بلاد الدكن حتى بدأت المتاعب من جديد ، لقد انحنى ملك أمبر للعاصفة مؤقتاً ، فلما صفا الجو بعودة شاه جهان بدأ يرفع

رأسه ثانية ، فنى سنة ١٦٢٠ نقض معاهدة سنة ١٦١٧ وعقد حلفاً مع جولكندا وبيجابور . وقد أحــــرز المغول بعض الانتصارات ، ولكن قبائل المراتا Marathas سببوا لهم متاعب كثيرة ، ولم تلبث جميع الأجــــزاء التى سبق أن استولوا عليها من إقليمى أحمد نجر وبرار أن فقدت منهم ؛ وحاصر أهل الدكن مدينة برهانبور نفسها . وأرسل شاه جهان إلى الدكن ثانيـــة فطارد الماراتا وطردهم بعد أن قتل منهم الجمع الغفير .

وتقدم الأمير لإنقاذ مدينة برهانبور ؛ فأسرع ملك أمبر بإعلان خضوعه وعقد شاه جهان الصلح بنفس الشروط السابقة .

وللمرة الثانية أحنى ملك أمبر رأسه للعاصفة ، وللمرة الثانية رفع رأسه فى الوقت المناسب ، فقد انتهز فرصة المتاعب التى أصابت الدولة بضياع قندهار ورفض شاه جهان التقدم لاستعادتها ، وأعلن الثورة . وفى هذه المرة اتجه شاه جهان إلى أحمد نجر وعقد حلفا مع ملك أمبر ، وبدأ يحاصر برهانبور ، ولكن لم يكد يصل القائد المغولى محبة خان من الشمال حتى رفع الحصار ، وعقد الصلح مع الإمبراطور الذى لم يلبث أن توفى بعد قليل .

من هذا يتضح أن سياسة جهانجير التوسعية فى الدكن لم تصب نجاحا يذكر ، وكانت عبقرية ملك أمبر وسياسته الفذة هى السبب فى هذا الفشل وفى المتاعب التى أصابت المغول فى عهد جهانجير ، فقد أدرك ما لطبيعة هضبة الدكن من مزايا استراتيجية ، فاستغلها استغلالا طيبا فى صراعه مع المغول ، كما استعان بقوى المراتا أعداء المغول ، وكانت النتيجة أن الدكن لم تخضع للمغول ، ورغم ملايين الروبيات التى صرفوها وآلاف الأرواح التى ضحوا بها ، فان حــــدود الدولة المغولية لم تتسع ميلا واحدا عما كانت عليه فى عهد « أكبر » .

ديوانى عام — قلعة أجرا
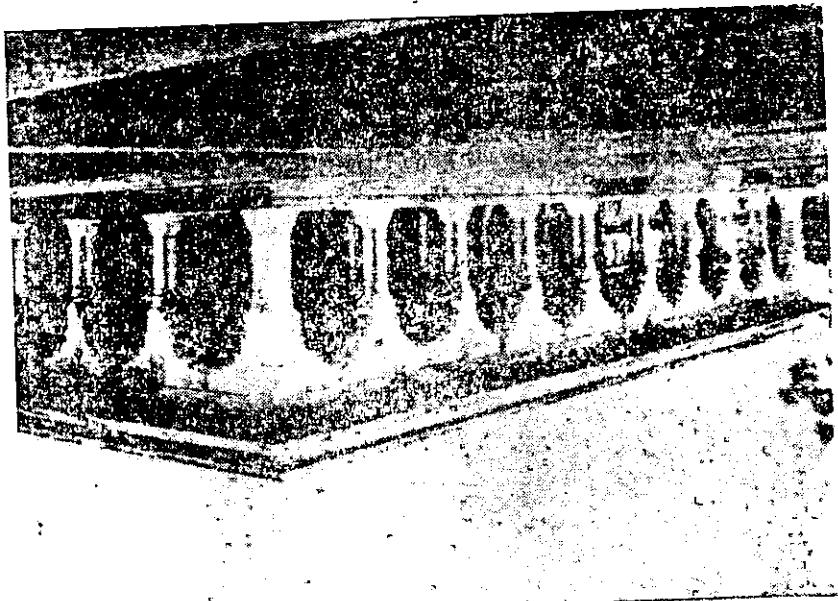
نورجهان :

كان اسمها مهر النسا ، وقد ولدت فى سنة ١٥٧٧ . وفى السابعة عشرة من عمرها تزوجت من على قلى استجلو Auli Kuli Istajlu ، وهو قائد كان الأمير سليم قد كافأه على شجاعته عندما قتل أحد النمور بأن منحه لقب شير أفغان .

ولكن جهانجير بعد أن تولى العرش بقليل سمع أن شير أفغان يعتزم الخروج والثورة . فأرسل إلى حاكم البنغال يأمره أن يرسله إلى العاصمة . وقد رفض شير أفغان الإذعان لهذا الأمر وجرح الحاكم جرحا مميتا ، مما دفع الحارس إلى قتله . وأرسلت أرملة شير أفغان وابنته الصغيرة إلى البلاط حيث عينت السيدة وصيفة للملكة الأم .

وفى سنة ١٦١١ ، شاهد جهانجير مهـــر النسا مصادفة فى السوق ، فأحبها وتزوجها .

كانت مهر النسا قد بلغت الرابعة والثلاثين من عمرها عندما تزوجت زوجها الثانى ، وقد لقبها زوجها بلقب « نورجهان » أى نور العالم ، فقد كانت ذا جمال رائع وثقافة ، تتقن اللغتين العربية والفارسية ، وتنظم الشعر . وبلغ من حبه واعتزازه لهـــا أن أمر بضرب اسمها على السكة إلى جانب اسمه ، وهى حالة وحيدة لانجد لها مثيلا فى تاريخ العملة الإسلامية .

كانت نورجهان تمتاز بطيبة القلب ، فعملت دائما على مساعدة الفقراء ، ويقال إنها تبرعت بصداق مئات من البنات عند زواجهن . وإلى هذا فقد كانت زوجة مخلصة ، خارقة الذكاء ، وكان خـــير ما يميزها قدرتها النادرة على فهم المعضلات والعمل على حلها . وطموحها الذى لا حد له ، وإرادتها الحديدية ، ولهذا فسرعان ما استولت على النفوذ فى يديها ، وأصبحت القوة الفعالة وراء العرش . ولتوكيد

صلتها بالبيت المالك ، عملت على زواج الأميرة خرم من بنت أخيها . وظل نفوذها يتزايد شيئا فشيئا وخاصة عندما تقـــدم السن بزوجها الإمبراطور جهانجير وأصابة الضعف والهزال فى مرضه الشديد الذى أصيب به فى سنة ١٦٢٠ ، فعند ذلك بلغت سلطاتها ونفوذها فى شئون الحكم والدولة القمة .

وفى نفس الوقت كان الأمير خرم قد أثبت جدارة ملحوظة كقائد وحاكم بعد النتائج الطيبة التى أحرزها فى معاركه ضد موار والدكن ، ولهذا كان من العسير أن تستسيغ نورجهان ذات الطبيعة المسيطرة تخليها عن مكانتها إذا نجح الأمير خرم فى تولى العـــرش . ورأت بنظرتها الثاقبة أن الأمير شهريار كان أضعف شخصية من أخيه خرم ، وأنه لذلك يصلح أن يكون أداة طيبة فى يدها ، ولهذا بادرت بتزويج ابنتها التى أنجبتها من شير أفغان من الأمير شهريار . ورغم أنه كان من المعروف لدى الجميع أن الأمير خرم هو ولى العهد ووريث العرش ، فقد بدأت تمهـــد السبيل ليخلف شهريار زوج ابنتها أباه جهانجير على عرش الإمبراطورية المغولية .

وبدأ الصراع ، وبذلت نورجهان جهودا جبارة لمحاربة نفوذ شاه جهـــان المتزايد ، ودفعته إلى اليأس دفعا ، حتى اضطر آخر الأمر أن يشق عصا الطاعة ويعلن الثورة علنـــا ، وبذلك نجحت نورجهان فى تحطيم المنافس الخطير الأمير شهريار .

وبعد أن كان شاه جهان يعتبر حتى سنة ١٦٢١ الوريث الشرعى للعرش ، أصابته المذلة ، وفقد سلطانه ، كما فقد ثقة أبيه .

ولم تقتنع نورجهان بهذا ، فقد كانت تريد أن تكون وحدها صاحبة السلطان فى الدولة ، وألا يكون لأحد غيرها نفوذ إلى جانب نفوذها ، ولهـذا فقد بدأت

تغار من الشهرة التى كان يتمتع بها محبة خان كقائد موفق ، واعتبرته مصدر خطر لأنه كان يعارض آراءها فى معظم الأحوال .

واستصدرت نورجهان أمرا باستدعاء محبة خان من البنغال إلى البلاط ، ورأى محبة خان أن الخيانة تكمن وراء هذه الدعوة ، فخرج فى حماية خمسة آلاف من الراجبوت ، وقبض على الإمبراطور أثناء عبوره نهر تشيليوم ، أما نورجهان فقد استطاعت الفرار .

وقد أظهرت شجاعة فائقة ، وقابلت هذه الأزمة بأعصاب قوية ، ولحقت بالإمبراطور وشاركته فى الأسر .

وقد استطاعت نورجهان بذكائها الخارق ودهائها الماكر ومواهبها الدبلوماسية أن تتغلب على محبة خان وأن تنجح فى إطلاق سراح الإمبراطور . فقد دبرت حيلة ماكرة لإبعاد محبة خان عن حرسه ، ثم استولت على خزانة أمواله حتى أصبح فى ضيق مالى شديد . ولهذا لم يلبث أن ذهب إلى موار ومنها إلى الدكن حيث انضم إلى شاه جهان .

وفى سنة ١٦٢٧ ، توفى جهانجير وهو عائد من كشمير بعد أن قضى بها وقتا للاستشفاء ، وكان ابنه شهريار مقيما حين ذلك فى لاهور ، فبادرت الإمبراطورة نورجهان — أم زوجته — بمساعدته حتى استولى على خزانة الدولة ثم أعلن نفسه إمبراطوراً .

أما الإبن الأكبر ولى العهد شاه جهان ، فكان يقيم فى الدكن ، فبادر حموه آصاف خان بإبلاغه نبأ وفاة والده ، ثم تقدم فى الحال بجيشه نحو لاهور ، واستطاع أن يهزم شهريار ، وأن يقبض عليه ، ويسجنه ، بعد أن سمل عينه .

ضريح جهانجير — لاهور
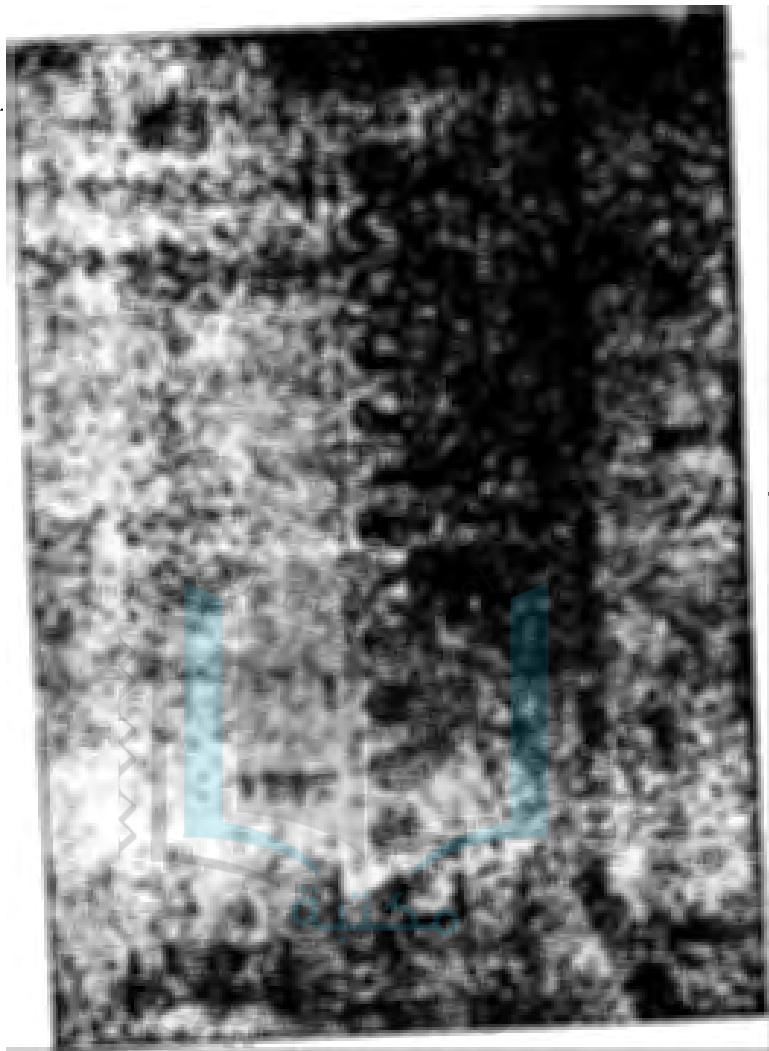
وفى فبراير سنة ١٦٢٨ وصل شاه جهان إلى لاهور وتولى عرش الإمبراطورية ، ولقب بلقب شهاب الدين محمد شاه جهان .

أما الإمبراطورة القديرة نورجهان فقد انسحبت فى صمت بعد هذه الصدمات العنيفة ، وعاشت فى عزلة لا يؤنس وحدتها فى أيامها الأخيرة غير ابنتها أرملة شهريار ، إلى أن أدركها الموت فى سنة ١٦٤٥ . وقد كان شاه جهان بارا بها ، فأكرمها ، وعاملها باحترام وتجلة ، ورتب لها راتبا سنويا .

الفصل التاسع

شهاب الدين محمد

شاه جهان

(١٦٢٨ — ١٦٥٨)

ولى شاه جهان العرش فى فبراير سنة ١٦٢٨ ، فخطب باسمه على منابر المساجد فى جميع أنحاء الهند ، وضرب اسمه على سكة جديدة ، وسحبت من الأسواق العملة التى كانت تحمل اسم نورجهان .

وقد بدأ شاه جهان حكمه ببعض الإصلاحات الدينية ، فقد كان المجتمع الإسلامى فى الهند لا يزال ساخطاً على الإجراءات التى أحدثها « أكبر » والتى كانت لاتزال متبعة فى عهد جهانجير ، وكان رجال الدين يرون أن هذه الإجراءات تدخل فى باب البدع التى تفسد الدين ويطالبون بتغييرها ، فاستجاب شاه جهان لهذه الرغبات ، وكان مما ألغاه السجود للإمبراطور ، وأمر أن يحل محله « الزامينبوس » Zaminbos أى تقبيل الأرض بين يدى الإمبراطور ، على أن يعفى من هذه التحية أيضاً الأشراف والشيوخ وعلماء الدين .

وكان رجال الدين يعتبرون السنة الشمسية بدعة ، فأمر شاه جهان بإلغاء استعمالها ، وأن تتبع السنة الهجرية القمرية فى دوائر الحكومة .

وقد أحدث شاه جهان كثيراً من الإصلاحات الإدارية الأخرى ، وأطلق على مدينة أجرا اسم « أكبرأباد » أى مدينة أكبر ، وأجزل العطاء لكل الموظفين الذين وقفوا إلى جانبه أثناء نضاله فى سبيل العرش ، وخاصة آصاف خان والد

زوجته الذى يرجع إليه الفضل الأكبر فى إفساد خطط شقيقه نورجهان والتمهيد لتوليته عرش الإمبراطورية .

• وفى السنوات الأولى من حكمه قامت بعض الثورات وخاصة فى إقليم الدكن فبذل جهداً كبيراً لإخضاعها .

وفى السنوات ١٦٣٠ - ١٦٣٢ حدثت مجاعة خطيرة ، راح ضحيتها عدد كثير من الهنود ، واضطر الفقراء إلى أكل لحوم الحيوانات . وقد تبرع شاه جهان بالأموال الطائلة ليخفف عن شعبه وطأة الجوع .

شاه جهان والبرتغاليون :

كان أكبر وجهانجير قد شملا البرتغاليين برعايتهما . وفى رحاب هذه الرعاية استقروا فى « هوجلى Hugli » وعملوا على تنمية ثرواتهم ، فبنوا عـــدداً من المحلات ، وأقاموا حولها الحصون لحمايتها والدفاع عنها .

ولكن شاه جهان بدأ يدرك خطورة هذا العنصر الأوربى ، وظل يترقب الفرصة السانحة لتأديبهم وإيقافهم عند حدهم . وقد سنحت هذه الفرصة فى سنة ١٦٣٢ ، فقد لاحظ شاه جهان أن البرتغاليين بعد استيلائهم على القرى التى تقع على ضفتى نهر هوجلى بدأوا يستبدون بالأهلين هناك ويتحكمون فى مقاديرهم ، كما لاحظ أنهم بدأوا يستغلون الامتيازات التى منحهم إياها الأباطرة السابقون إستغلالا سيئاً ، ففرضوا على الأهالى ضرائب خاصة كانوا يجمعونها ويستعملونها فى مصالحهم الخاصة ، وكان لهذا آثار سيئة فى إيرادات الدولة .

كذلك كان البرتغاليون يمارسون تجارة الرقيق ، ويستعملون فى تجارتهم هذه مختلف أساليب العنف والقسوة ، وكثيراً ما كانوا يخطفون الأطفال الأيتام من الهنود والمسلمين على السواء ويصدرونهم إلى الدول الخارجية .

شاہ جہاں

وكان القسس ورجال الدين من البرتغاليين يثيرون الكره فى نفوس الأهلين بتعصبهم الشديد المقيت . فقد كانوا يبذلون الجهود لتنصير الهنود بالعنف والقوة ، ومع هذا لم يلاقوا إلا نجاحاً ضئيلا .

وقد أثار البرتغاليون غضب الإمبراطورة ممتاز محل باعتقالهم جاريتين من جواريها . هذه التصرفات الوقحة أثارت سخط الإمبراطور على البرتغاليين ، ودفعته إلى العمل على تأديبهم والحد من نفوذهم ، فى سنة ١٦٣١ أصدر شاه جهان أمره بتعيين قاسم خان حاكما على البنغال وعهد إليه بتحطيم مستعمرة البرتغاليين عند هوجلى .

وبدأ الجيش المغولى بمهاجمة البرتغاليين المستقرين على ضفتى النهر ومحاصرة قلاعهم . واستمر الحصار ثلاثة أشهر حاول البرتغاليون فى خلالها خداع الإمبراطور ، فقدموا له مبلغاً ضخماً من المال ، ووعدوا بدفع الجزية ، ولكنهم كانوا فى نفس الوقت يبذلون الجهد الجهيد لإتمام استعداداتهم الحربية لمقاومة جيش المغول ، فأعدوا فرقة من المدفعية تتكون من سبعة آلاف رام لمقاتلة العدو . ورغم هذا فإن المعركة لم تكد تبدأ حتى انتهت بالقضاء التام على البرتغاليين ، بأزيلت حصونهم ومحلاتهم تماماً وسويت بالأرض ، أما جيشهم وكان يتكون من عشرة آلاف فقد قضى عليه جميعاً ، إما بالقتل أو بالغرق فى النهر كما قتل من جيش الإمبراطور نحو ألف جندى . وهكذا انتهت المعركة بالقضاء على البرتغاليين ونفوذهم . وبتحرير نحو عشرة آلاف هندى كانوا فى أسرهم .

الامبراطورة ممتاز محل :

أرجومند بانو بيجوم Arjumand Banu Begum أو ممتاز محل ، صاحبة

ممتاز محل

التاج ، وإمبراطورة الهند ؛ كانت امرأة رائعة الجمال ثاقبة الفكر ، أخذت الحسن والجمال عن عمتها نورجهان ، وأخذت الذكاء والمواهب الفكرية عن أبيها آصف خان .

ولدت فى سنة ١٥٩٤ ، وفى سنة ١٦١٢ زوجت من الأمير خرم ، ومنذ اللحظة الأولى استطاعت ممتاز أن تأسر لب زوجها . بجمالها وسلامة تفكيرها ، فأحبها حباً لم يحبه زوج لزوجته من قبل ، وبادلته هى حباً بحب وتقديراً بتقدير ، فكانت له نعم الصديق المعين وخاصة فى محنته عندما غضب عليه أبوه فى أخريات أيامه . واضطر أن يضرب فى الأرض شارداً لا مأوى له .

ولما ولى شاه جهان العرش ، منحها لقب ملكة الزمان وزاد فى مخصصاتها وإقطاعاتها ، وكان يسألها الرأى والنصيحة فى كل أمر من أمور الحكم فلم يكن يبرم أمراً دون استشارتها ، كما عهد إليها بحفظ الخاتم الملكى ، وظل فى حفظها إلى أن أشارت بأن يعهد به إلى أبيها .

وقد أنجبت هذه السيدة لزوجها أربعة عشر طفلا ، وظلت على حبها ووفائها له إلى أن توفيت فى برهانبور فى سنة ١٦٣٠ فى السادسة والثلاثين من عمرها عقب ولادة عسرة ، وقد حملت جثتها إلى أكبر أباد ثم دفنت بعد ذلك فى القبر الخاص الذى بناه لها زوجها فى مدينة أجرا ، والذى يعتبر حتى اليوم إحدى عجائب العالم بجماله وروعته وهو التاج محل .

لقد كانت ممتاز محل أفضل نساء عصرها وأكرمهن ، تعطف على الفقير وتغيث الملهوف ، ويروى المؤرخين أنها كثيرا ما شفعت للمجرمين الذين فقدوا الأمل فى الحياة حتى عفا عنهم الإمبراطور ، وكان بابها مقصد كل محتاج ، وكانت تهب منحاً يومية من حر مالها للنساء الفقيرات ، كما كانت دائمة العطف على اليتامى والأرامل ، وكانت تسعى لتأهيل الفتيات الفقيرات وتدفع لهن صداقهن .

تاج محل — أجرا
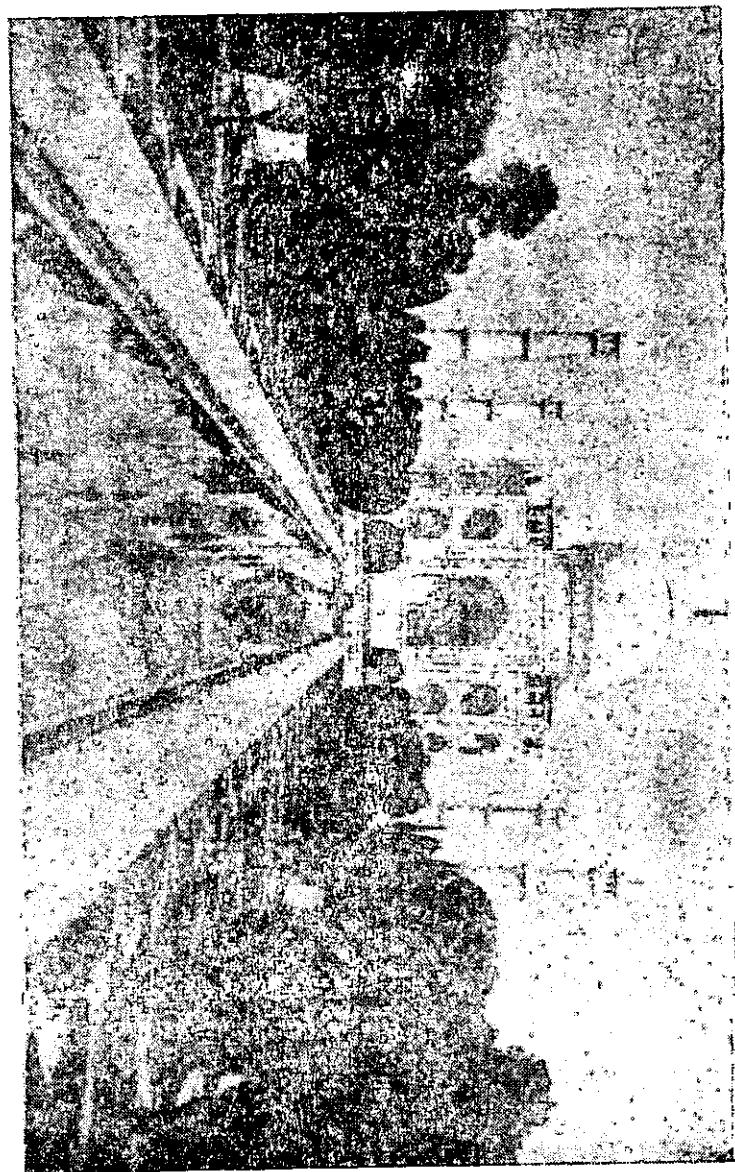
بهذه الأخلاق النبيلة ، وبهذه العواطف الإنسانية الحساسة استطاعت ممتاز محل أن تكسب محبة زوجها وتقدير شعبها ، ولهذا لم يكن غريبا أن يبذل شاه جهان كل هذه الجهود وكل هذه الأموال لبناء التاج محل ليكون مثوى لزوجته ، ورمزا للحب والإخلاص ، وآية من آيات الجمال الخالدة .

سياسة شاه جهان فى اقليم الدكن :

كانت السلطات الشيعية فى الدكن تعتبر دائما قذى فى أعين أباطرة المغول ، ولهذا رأينا الإمبراطور أكبر يركز جهوده الحربية فى المدة بين سنتى ١٦٠٠ و ١٦٠٥ لغزو إقليم الدكن ، وقد استطاع أن يضم إليه مملكة خاندش ، وشطرا كبيراً من إمارة أحمد نجر ، وكان يطمح بعد هذا أن يضم إليه كل بلاد الهند ، ولكنه مات قبل أن يستطيع تحقيق هذا الحلم .

وقد نهج جهانجير نهج أبيه ، واتبع سياسته ، ولكنه وجد فى ملك أمبر عدوا صلبا قويا ، ولهذا لم تلاق سياسته فى الدكن أى نجاح . ثم أتى شاه جهان فاندفع لاتمام سياسة أبيه وجده التقليدية فى حماس شديد ، فقد كانت العوامل السياسية وحدها هى التى تحرك أكبر وجهانجير ، أما شاه جهان فقد كانت تدفعه حماسته الدينية المعادية للسلطنات الشيعية إلى جانب العوامل السياسية .

وقد أصاب شاه جهان نجاحا لم يصبه أبوه وجده ، ويرجع هذا إلى أسباب كثيرة منها :

— أنه كان خبيراً بأحوال الدكن صغيرها وكبيرها .

— نشأت مجاعة خطيرة فى الإقليم يسرت له سبل الفتح .

— كان العدو الأكبر ملك أمبر قد توفى ، وبذلك لم تقم فى الدكن بعده معارضة أو دفاع يذكر .

تاج محل ـ أجـــرا
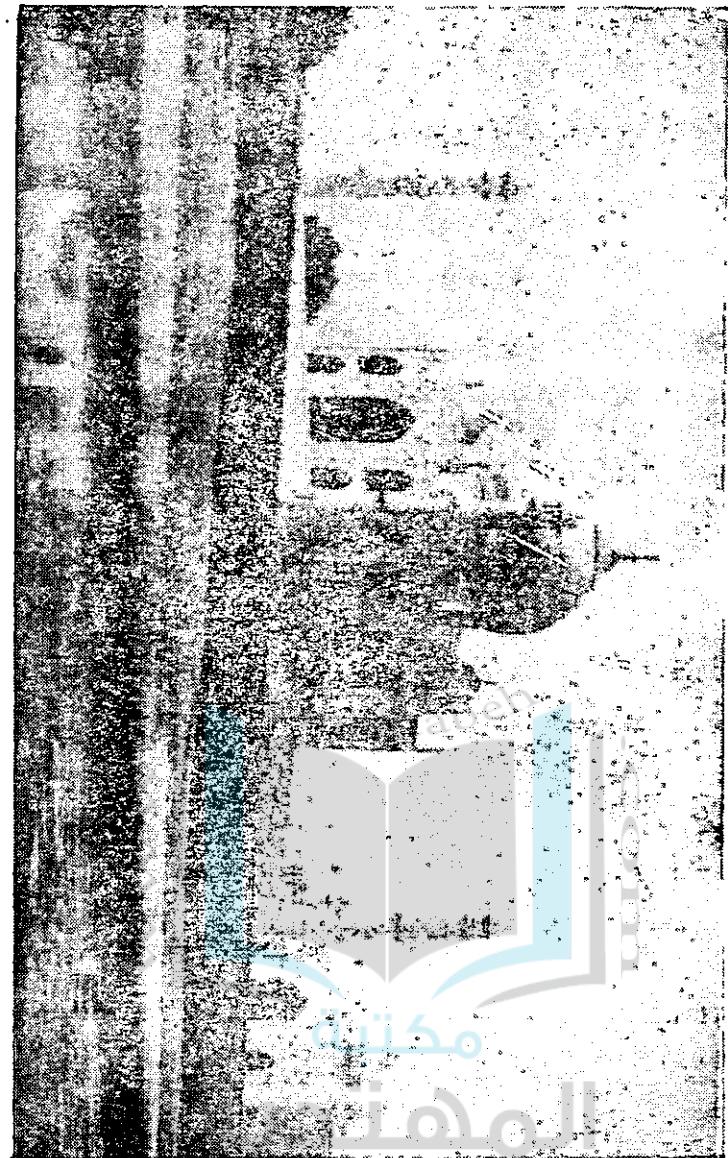
واستطاع شاه جهان بعد حروب كثيرة وجهود مضنية أن يضم إلى ملكه إمارات أو سلطنات ثلاث كبرى وهى : أحمد نجر ، وبيجابور ، وجولكندا ، وبذلك خضع الدكن لملك المغول ، وعين شاه جهان ابنه الثالث أورنجزيب ـ ولم يكن قد جاوز الثامنة عشرة من عمره ـ حاكما عليه .

سياسة شاه جهان فى أواسط آسيا :

بدأ شاه جهان يتجه بنظره بعد هذا إلى أواسط آسيا ، يريد أن يستعيد ملك المغول القديم هناك ، وخاصة بلخ وبدخشان ، وبدأ بمهاجمة قندهار لأهميتها التجارية والحربية ، ونجحت جيوشه أول الأمر فى الاستيلاء عليها ، ولكن ملك فارس لم يلبث أن استردها بعد نضال طويل أثبت تفوق الجيوش الفارسية على جيوش المغول فى فن الحرب .

وتقدمت جيوش شاه جهان بعد ذلك نحو بلخ ، ودارت معارك كثيرة ظلت نحو ثلاث سنوات ، انتهت أيضا بفشل المغول فى الاستيلاء على إقليمى بلخ وبدخشان . وكان لهذا الفشل آثار خطيرة ، فقد أثار أطماع الفرس ، وبدأوا يتطلعون بأنظارهم منذ هذه اللحظة نحو بلاد الهند تداعبهم الآمال فى الاستيلاء عليها .

الأمير أورنجزيب حاكم الدكن :

فى سنة ١٦٣٦ عين أورنجزيب نائبا للإمبراطور وحاكما على كل الممتلكات الجنوبية ، وظل يلى حكمها لمدة ثمانى سنوات حيث اعترضته صعوبات كثيرة ولكنه قابلها بشجاعة وإرادة قوية ، واستطاع أن يدخل كثيراً من التعديلات على نظم الحكم وأن يضم بعض الأجزاء الجديدة إلى ملك المغول .

ولهذا كان من الغريب أن يكافأ أورنجزيب على كل هذه الجهود بعزله فى سنة ١٦٤٤ . ولم يكن هناك من سبب إلا انحياز الإمبراطور إلى ابنه الأكبر دارا .

وبعد وقت وجيز ، عفا شاه جهان عن ابنه أورنجزيب وعينه حاكما على جوجرات ، وبعد سنتين عهد إليه بقيادة الجيش المغولى فى بلخ .

وقد استطاع أورنجزيب بشجاعته ومواهبه الفائقة أن يتغلب على صعوبات هذه الحرب ، وأبدى مهارة واضحة فى المفاوضات التى انتهت بعقد صلح معقول ، وبذلك ارتفعت مكانته عند الجيش المغولى كقائد شجاع وكسياسى محنك .

ولاية أورنجزيب الثانية على الدكن (١٦٥٢-١٦٥٨) :

وفى سنة ١٦٥٢ عين أورنجزيب حاكما على الدكن للمرة الثانية ، وظل يشغل هذا المنصب إلى سنة ١٦٥٨ . وقد وجد الأحوال هناك عند تعيينه سيئة غاية السوء ، فالفلاحون وأصحاب الإقطاعات ساخطون غير راضين، وأصبح تحصيل أموال الحكومة أمرا عسيرا ، وكانت الإدارة الحكومية تواجه أزمة مالية خطيرة .

كانت هذه الحالة تقلق شاه جهان ، ولهذا طلب من ابنه أورنجزيب أن يتخذ خطوات حاسمة لإصلاح الإدارة ، واستجاب الإبن للطلب ، وأحدث تغييرات إصلاحية أساسية فى مختلف الإدارات وعنى عناية خاصة بشؤون الزراعة والفلاحين وبالجيش ، بحيث لم يمض غير وقت قصير حتى بدأت الأحوال فى إقليم الدكن تتحسن بشكل واضح .

وعلى الرغم من هذه الجهود فإن أورنجزيب لم يستطيع أن ينال رضاء أبيه ، ويرجع هذا إلى أن الأمير دارا ومن معه من رجال البلاط كانوا قد نجحوا فى إثارة الضغينة فى نفس شاه جهان على ابنه أورنجزيب بحيث أصبح من العسير أن يوليه الثقة من جديد .

الصراع حول العرش :

كان لشاه جهان أولاد أربعة : دارا ، وشجاع ، وأورنجزيب ، ومراد . وعندما أصيب بالمرض فى أواخر سنة ١٦٥٧ كان دارا فى العاصمة ، وكان أورنجزيب فى الدكن ، وأما مراد فقد كان فى جوجرات .

وقد سارع شاه جهان فدعا رجال القصر وأعلن ابنه الأكبر الأثير إلى نفسه دارا وليا للعهد . وقد بذل دارا كل جهد ممكن ليمنع تسرب الأخبار من البلاط إلى الخارج .

وكان كل أمير من الأمراء الثلاثة الآخرين تحت قيادته جيش معد ، وفى نفسه طموح لتولى العرش ، فقد كان كل منهم يعتقد أنه إذا لم ينجح فى الاستيلاء على الحكم فإن نصيبه الموت سجنا أو شنقا .

وبينما كان دارا يعمل على تقوية مركزه فى العاصمة ، كان شجاع ومراد قد توجا نفسيهما كل فى الإقليم الذى يحكمه . أما أورنجزيب فقد التزم الهدوء على أن يبادر إلى الحركة فى الوقت المناسب .

وكان شجاع أول من تحرك ، فقد وصل بنارس فى ٢٤ يناير ، فأرسل إليه دارا جيشا ضخما بقيادة ابنه سليمان شوكوه ، وهزم شجاع ، وتراجع إلى مقر حكمه فى البنغال .

وكان مراد قد أعد كذلك جيشاً كبيراً ، وتحالف مع أخيه أورنجزيب وتقدما معا نحو الشمال . وعلم دارا بتحرك الأخوين فأسرع بإرسال جيش مضاد لإيقاف تقدمهما . وتقابل الجيشان فى دارمات Dharmat بالقرب من أوجين Ujjain (أبريل سنة ١٦٥٨) وهزم جيش دارا ، وانتصر الأخوان ، فاضطر دارا أن يخرج إلى القتال بنفسه . وقامت بين الفريقين معركة خطيرة عند سموجره

Samugarh (مايو ١٦٥٨) . وفى أثناء المعركة أصيب فيل دارا بجرح خطير فاستبدل به حصانا ، ولكن جنوده لم يفطنوا إلى هذه الحركة ، فلما نظروا إلى الهودج ووجدوه خاليا أيقنوا أن قائدهم قد أصيب، فتخاذلوا وأسرعوا بالفرار ، وكان سبب هذا الهزيمة ، ودخل أورنجزيب أجرا وكتب إلى والده التماسا حاول أن يبرر فيه فعلته وأن يدافع عن مركزه .

وعلم أورنجزيب أن أخاه مراد يدبر مؤامرة ضده ، فقبض عليه وسجنه فى جوالبور ، ثم حوكم ، وحكم عليه بالإعدام ونفذ الحكم .

أما شجاع فقد حاول بعد هزيمته أن يكون جيشا كبيرا وأن يسعى للحصول على العرش ، ولكن أورنجزيب هزمه وظل يطارده من مكان إلى مكان إلى أن قتل فى سنة ١٦٦٠ .

وكان دارا قد استولى على الخزانة فى دلهى ولاهور . ولكن أورنجزيب خرج لمقاتلته ، فاضطر أن يفر إلى السند ثم إلى أحمد أباد ، حيث حاول أن يكون جيشا جديدا . ولما علم بأن أخاه شجاعا يتقدم لمواجهة أورنجزيب ، تقدم هو أيضا إلى أجرا ، ولكن أورنجزيب استطاع أن يهزم الأخوين الواحد بعد الآخر ، ففر دارا إلى أحمد أباد حيث حوصر ثم قتل .

وسمح لشاه جهان أن يعيش فى قلعة أجرا ، فبقى بها معززا مكرما ، ولكن لا يسمح له البتة بمغادرة القلعة إلى أن مات فى سنة ١٦٦٦ . ونحن إذا استثنينا بعض الثورات والمجاعة الخطيرة وحروب الدكن المتصلة ، نستطيع أن نقول إن عهد شاه جهان كان عهد ازدهار وتقدم فى مختلف النواحى المادية والحضارية . وكان شاه جهان نفسه رجلا عطوفا رقيق القلب متدينا ؛ كما كان قائدا قديرا وإداريا حازما . وفى عهده بلغت العمارة الإسلامية أوج رقيها وعظمتها ، ويكفى أن نقول إن تاج محل بنى فى أيامه .

الفصل العاشر

محى الدين محمد أورنجزيب

عالم جـــبير

(١٠٢٧ - ١١١٨هـ = ١٦١٨-١٧٠٧م)

كان أورنجزيب الإبن الثالث لشاه جهان وممتاز محل ، وقد ولد فى الخامس عشر من ذى القعدة سنة ١٠٢٧ هـ (٣ نوفمبر سنة ١٦١٨) وعرف منذ طفولته بالشجاعة الفائقة والجرأة ، وأبرز حادث يذكره المؤرخون للدلالة على بسالته صراعه مع فيل ثائر ؛ تقول الرواية : « إن أباه كان يشهد فى أحد أيام شهر مايو من سنة ١٦٣٣ مصارعة بين فيلين ، وأثناء المصارعة إستدار أحد الفيلين وهاجم الطفل أورنجزيب ، وكان وقتذاك فى الرابعة عشرة من عمره ، ولم يرع أورنجزيب كا ريع المتفرجون الآخرون ، بل ثبت فى مكانه ومنع حصانه من التراجع ، وضرب الفيل فى جبهته بحربته ، وأثارت الضربة الفيل الثائر فعاود الهجوم ، فتقدم الأمير شجاع وآخرون لمساعدة أورنجزيب ، ورغم هذا فقد نجح الفيل فى طرحه أرضاً بعد أن ضرب حصانه بخرطومه . ولكن أورنجزيب انتفض واقفاً وهاجم الفيل بسيفه واضطره إلى الفرار . هذه الشجاعة الفائقة أثارت إعجاب الحضور جميعاً ، وتقدم أبوه شاه جهان فعانقه معلناً حبه له وإعجابه به » .

ولايته للعرش :

ولى أورنجزيب العرش فى الثانى والعشرين من يوليو سنة ١٦٥٨ بعد أن تغلب على منافسيه وأزاحهم من طريقه ، وخطب له على المنابر ، وضربت

اورنگزیب

السكة باسمه ، ولقب نفسه « بالغازى باد شاه أبو المظفر محي الدين محمد أورنجزيب بهادر عالم جير » .

(أورنج = عرش ، وزيب = زينة ، فاسم أورنجزيب معناه زينة العرش ، وجير معناها سيد أو حاكم ، فكأن عالم جير معناها سيد العالم) .

ولكنه لم يحتفل بتوليته العرش إلا بعد مضى سنة تقريباً ، فني الخامس من يونيو سنة ١٦٥٩ أقيمت الاحتفالات والأعياد التي استمرت شهرين كاملين ، وبذلت الجهود لإدخال السرور على قلوب طبقات الشعب جميعاً ، وأقبل السفراء من مختلف البلاد الإسلامية لتقديم التهنئه ، فقوبلوا بكل ترحاب ، وخلعت عليهم الخلع ، وقدمت لهم الهدايا والعطايا ، كما أرسلت حكومتا هولندا وفرنسا ممثليهما للمشاركة فى هذه الاحتفالات وتقديم فروض التهنئة ، فلقيا من حكومة أورنجزيب مثل ما لقى زملاؤهما من سفراء الدول الإسلامية .

أعماله الأولى :

ويعتبر عهد أورنجزيب الذى طال حتى قارب النصف قرن من أهم عهود التاريخ الهندى ، ففيه وصلت الإمبراطورية المغراية إلى أقصى اتساعها ، وإلى ذروة قوتها ومجدها .

وقد رسم أورنجزيب خطة جديدة فى الحكم والسياسة ، فعمل بعد الحكم مباشرة على التخلص من التيارات غير الإسلامية التى كانت قد اتخذت طريقها إلى القصر الإمبراطورى ، وتسربت إلى نفوس الشعب .

وبدأ أورنجزيب بإعادة فرض ضريبة الجزية على غير المسلمين ، وقد أساء الكتاب الأوربيون المحدثون الذين كتبوا عن أورنجزيب فهم هذا الإجراء . ولبيان حقيقة الدوافع التى دفعته إلى إعادة فرض هذه الضريبة تقول إن الجزية

مسجد باديشاه

بناه الإمبراطور أورنجزيب

فى مدينة لاهور ١٦٧٣ / ١٦٧٤ م

ضريبة كانت تفرض على القادرين من أهل الذمة فى كل دولة إسلامية مقابل إعفائهم من الخدمة العسكرية ، وقد كان الإمبراطور « أكبر » ألغى هذه الضريبة لأنه أخضع جميع المواطنين للتجنيد الإجبارى بصرف النظر عن دياناتهم .

أما أورنجزيب فقد اعتبر هذا الإجراء مخالفاً للإسلام الذى لا يسمح بفرض الخدمة العسكرية على غير المسلمين بالقوة أو رغم إرادتهم ، ولهذا أعاد أورنجزيب فرض الجزية كما كانت . ومع هذا فقد كانت هذه الضريبة ضئيلة القيمة محددة التطبيق ، فكان يعفى منها موظفو الدولة ، وكل النساء والأطفال وكل العاجزين عن الكسب وكل الفلاحين ومن يقل دخلهم السنوى عن ٥٢ روبية .

ولاحظ أورنجزيب أن الشعب قد قاسى كثيراً إبان النزاع والحروب التى نشبت فى سبيل ولاية العرش ، فقد فرضت عليه ضرائب ومكوس كثيرة ، ولهذا بدأ حكمه كذلك بإلغاء نحو ثمانية مكسا من المكوس ، كما أمر بتخفيض الضريبة المفروضة على القمح لتخفيض أسعار المأكولات ، وكان أورنجزيب رجلا متديناً ، ولهذا حاول أن يوائم بين قوانين الدولة والشريعة الإسلامية ولهذا ألغى نظام السنة الشمسية ، واتبع التقويم العربى القمرى .

وأوقف الاحتفال بالنيروز باعتباره عادة فارسية ، وأمر بترميم المساجد وتعمير الخانقاوات ، وعين الأئمة والمؤذنين ، وخصص لهم رواتب ثابتة ، وأصدر الأوامر المشددة للمحتسبين ليأخذوا الناس بالشدة ويلزموهم باتباع أوامر الشرع .

مرض أورنجزيب ومحاولة عزله :

وفى سنة ١٦٦٤ - بعد الاحتفال بالعيد الخامس لتولى أورنجزيب العرش -

إمبراطورية عالم جير

أصيب بمرض شديد ، وأوشك هذا المرض أن يهز عرش الإمبراطورية . فقد انتهز أعوان الملك المعزول شاه جهان الفرصة وبدأوا يدبرون المؤامرات لإطلاق سراحه وإعادته إلى العرش ، ولكن الخلف لم يلبث أن وقع بينهم ، وانقسموا فريقين : فريق أراد أن يولى « المعظم » ـ الابن الثانى لأورنجزيب ـ العرش ، وفريق أراد أن يختار الإبن الثالث « أكبر » .

غير أن أورنجزيب تحامل على نفسه فى اليوم الخامس من مرضه ، واستقبل عدداً من كبار ضباطه جاءوا ليقدموا له فروض الطاعة ، وأصدر أمراً إلى أخته البيجوم روش أرا لتعيد إليه الخاتم الأعظم ـ خاتم الملك ـ الذى كان قد عهد إليها بحفظه ، وأبقاه معه منذ ذلك الحين حتى لا يمكن استعماله بغير إذنه . وبذلك استطاع أورنجزيب أن يتحاشى هذا الخطر مستعيناً بحضور بديهته وقوة إرادته . ولم يكد يشعر بشىء من التحسن حتى انتقل إلى كشمير ليقضى هناك أيام النقاهة ، وقد صحبه فى هذه الرحلة الكاتب الفرنسى « برنييه Bernier » الذى ترك لنا فيما بعد وصفاً شائقاً لوادى كشمير وانتقـــلات الإمبراطور أورنجزيب أثناء هذه الرحلة .

فتح آسام :

إبان الحروب التى نشبت فى أواخر عهد شاه جهان فى سبيل تولى العرش ، تقدم راجات كوش بهار Cooch-Baher وآسام من الغرب والشرق نحو أراضى الدولة المغولية ، وأعملوا فيها معاول النهب والتخريب .

ولهذا لم يكد أورنجزيب يلى العرش ، حتى أصدر أمره بتعين الأمير جمله Mir Jumlah حاكما على إقليم البنغال ، وفوض إليه أمر تأديب هؤلاء الراجات الخارجين .

وفى نوفبر سنة ١٦٦١ غادر الأمير « جمله » دكا Decca وسار نحو موش بهار وفتحها بعد مقاومة ضئيلة ؛ وفى يوليو من سنة ١٦٦٢ سار نحو أسام . ومعأن جنده تحملوا صعابا كثيرة عند اجتيازهم الطريق المليئة بالأحراش فقد استطاع « جمله » أن يقتحم أراضى الأعداء وأن يطاردهم على طول نهر البراهما بترا ، وأن يستولى على الكثير من قلاعهم ؛ كما اشتبك مع أسطولهم فى معركة بحرية حاسمة انتهت بتحطيم هذا الأسطول والاستيلاء على العاصمة . واضطر الراجا أن يطلب الأمان ، فأجيب إلى طلبه بشرط أن يتنازل عن جزء من أملاكه ، وأن يدفع غرامة حربية .

وهكذا استطاع الأمير « جمله » أن يحرز ـ بعبقريته الحربية الفذة ـ هذه الانتصارات الرائعة فى أسام ، ولكنه لم يستطع ـ لكبر سنه ـ أن يتحمل كل هذه المشاق ، فتأثرت صحته ، وتوفى فى أبريل سنة ١٦٦٣ وهو فى طريق عودته إلى دكا .

تأديب القراصنة البرتغاليين :

وخلف الأمير « جمله » فى القيادة شايستاه خان Shaistah Khan ، فعهد إليه أمر تأديب القراصنة من البرتغاليين فى شيتا جونج Chitagong . وقد وصف الرحالة والكاتب الفرنسى « برنييه » ـ الذى كان يقيم فى بلاط أورنجزيب وقتذاك ـ هؤلاء البرتغاليين بقوله : « لقد كانوا مسيحيين بالإسم فقط ، كما كانوا يحيون أشنع وأكره حياة يحياها أنسان » ، ولم يبعد برنييه عن الحقيقة حين وصفهم هذا الوصف ، فقد كان دأبهم أن يخطفوا الرجال غير المسلحين ويبيعوهم بيع الرقيق .

عمل شايستاه خان على تقوية أسطوله ، ثم شن غارة قوية على هؤلاء التجار

الأشرار ، فأنزل بهم هزيمة شنعاء ، واستولى على أكثر من مائة قارب من قواربهم، واستعاد مدينة شيتا جونج ، وأسماها « إسلام أباد » ، وأطلق سراح آلاف من الأسرى المساكين الذين كانوا فى حوزة هؤلاء القراصنة البرتغاليين .

أورنجزيب والمراتها Marathas :

والمراتها جنس من أجناس الهند كانوا يسكنون الإقليم المحيط بمدينة بومباى ، وقد عرفوا - كما عرف جيرانهم الراجبوت - بالقوة وشدة البأس . وفى عهد أورنجزيب قوى سلطانهم وأصبحوا خطرا يهدد الدولة المغولية ، وفيما يلى موجزاً لحركاتهم وموقف الدولة منهم .

كان من بين القواد البارزين فى سلطنة أحمد نجـــار قائد اسمه شاهجى وهو والد زعيم المراتها الكبير شيفاجى . وقد انتقل شاهجى فيما بعد إلى خـــدمة بيجابور ومنح هناك إقطاعا كبيرا ، وقد أغرم بحب فتاة صغيرة فأعرض عن زوجه القديمة وابنها شيفاجى ، ولهذا فقد نشأ شيفاجى متنقلا فى الجبال المحيطة ولم يتلق أى تعليم ، ولم تصقله الثقافة أو تهذبه التربية . وإنما نما وفى خلقه شىء كبير من قسوة سكان الجبال وخشونتهم . وسرعان ما جذب إليه عددا من رفاقه وكون منهم عصابة منظمة من الشطار وقطاع الطريق ، وأخذوا يعملون على تهديد نظام الحكم القائم وزعزعة أركانه .

وكانت سلطنة بيجابور تسير فى عهد محمد عادل شاه سيرا حثيثا نحو الضعف والانحلال ، فانتهز شيفاجى الفرصة السانحة وأخذ يعمل على تنمية قواه الحربية والمادية ، ولم يعمد فى سبيل تحقيق هدفه هذا إلى الحرب السافرة ، وإنما كان سلاحه الخيانة والقتل والغدر .

وفى سنة ١٦٥٧ وبينما أورنجزيب يعد جيوشه لمحاربة بيجابور ، تقـــدم

شيفاجى وعرض خدماته على المغول، وقبل الشروط التى فرضوها عليه ، ولكن القتال لم يكد يشتد فى بيجابور حتى انتهز شيفاجى الفرصة ، ونقض العهد الذى أعطاه للمغول وهاجم ممتلكات الإمبراطور ، وأراد أورنجزيب أن يعاقبه جزاء خيانته ، ولكنه أسرع وتقدم يطلب العفو ويعلن خضوعه وولاءه .

وفى سنة ١٦٦٤ عاد شيفاجى وهاجم إقليم سورات Surat وعامل أهـله معاملة كلها قسوة وعنف ، وقد وصف كاتب إنجليزى كان شاهد عيان لهذه الأحداث قسوة شيفاجى بقوله :

« كانت رغبته فى المـال شديدة ، ولم يكن يتورع عن استعمال كل صنوف القسوة والوحشية فى سبيل إشباع هذه الرغبة ، وإجبار أسراه على الاعتراف بما لديهم من أموال ، فكان يضربهم بالسياط ضربا مبرحا ، ويهددهم بالقتل ، بل طالما كان يقدم على تنفيذ هذا الوعيد بالقتل إذا لم يقدموا له المبالغ التى يحسب أنهم يملكونها أو التى يطمع فى أن يقدموها إليه ، فكان أحيانا يقطع يد الأسير ، وفى أحيان أخرى يقطع اليدين جميعا » .

وكان من الطبيعى أن لا تغفر الدولة له هذه الأعمال ، فأعدت حملة لتأديب هؤلاء اللصوص من المراتها ، وخلال أشهر قليلة بدأت قلاعهم تسقط فى أيدى المغول الواحدة بعد الأخرى ، واضطر شيفاجى أن يأتى بنفسه إلى قائد هذه الحملة ويسأله العفو ، وأجابه القائد إلى طلبه بشروط ، منها أن يقوم بتسليم ثلاث وعشرين قلعة من قلاعه التى يبلغ عددها خمسا وعشرين ، وأن يأخذ ابنه شامبهاجى رهينة عنده ، وأن يسمح له بالعودة إلى إقطاعه ، على أن يلبى نداء الدولة كلما احتاجت إلى خدماته .

ومع هذا فلم تكد تمضى ثلاث سنوات حتى عاد شيفاجى إلى سابق عهده وهاجم

إقليم سورات للمرة الثانية فى سنة ١٦٧٠ ، وفى سنة ١٦٧٤ لقب نفسه بلقب راجا .

وفى سنة ١٦٨٠ توفى شيفاجى ، وقد حاول بعض الكتاب المتأخرين أن يصوروه فى صورة بطل قومى حاول أن يخلص الهنود من حكم المغول ، ولكنهم لم يكونوا على حق فى هذا ، فقد بدأ شيفاجى حياته قاطع طريق ، ثم استطاع ـ نتيجة الفوضى التى كانت تضرب أطنابها فى بيجابور وقتذاك ـ أن يستولى على عدد من القلاع الجبلية والأراضى المحيطة بها ، ثم نمت أطماعه بنمو قوته الحربية والمالية ، فكان يقوم فى كل سنة بغارات جديدة لمهاجمة الأهالى الآمنين ، وكان سلاحه الدائم فى هذه الغارات لا يعدو القتل والخيانة والاحتيال .

جولكندا :

كانت الأحوال فى إقليم الدكن ـ منذ غادره أورنجزيب فى سنة ١٦٥٨ ـ قد بلغت حدا كبيراً من السوء والفساد ، ففى بيجابور وجولكندا اضطربت الأمور وجعلت غارات المراتها الحياة فيهما غير آمنة . لهذا رأى أورنجزيب أن لابد من غزو هاتين الإمارتين ، وخاصة أنهما كانتا تتآمران دائما مع زعيم المراتها شامبهاجى بن شيفاجى وخليفته .

ومنذ ولى أبو الحسن عرش جولكندا وأصبحت سياسة الإمارة العداء الصريح للدولة المغولية . فقد عقد ماردانا Mardanne الوزير البرهمى لأبى الحسن ـ حلفا مع شيفاجى فى سنة ١٦٧٧ وتعهد أن يدفع له إتاوه سنوية قدرها لك (الملك يساوى مائه ألف من العملة الهندية) .

واتبعت بيجابور سياسة معادية للمغول ، وبدلا من أن تقدم يد المساعدة للإمبراطور كانت تعمل فى السر على معاونة المراتها .

وكان سلاطين الدكن قد بلغوا مبلغا كبيرا من الضعف ، ولهذا وجد

أورنجزيب أنه لا مناص من مهاجمتهم ، وبدأت الحرب بشن الغارة على بيجابور. وأثناء القتال علم أورنجزيب أن حاكم وحكام جولكندا يأتمرون به ويحاولون تكوين حلف ثلاثي يجمع بين بيجابور وجوكندا وشامهاجى ، ولهذا أسرع فأعلن الحرب على جولكندا وأمر جيوشه أن تهاجم عاصمتها . ووجد أبو الحسن نفسه عاجزا عن مقاومة جيوش المغول فاحتمى بقلعة جولكندا ، وأرسل إلى أورنجزيب يطلب الأمان ، فأجيب إلى طلبه بشرط أن يدفع غرامة حربية كبيرة . ومع هذا فانه لم يحسن الإفادة من هذا العفـــو ، فإنه لم يمتنع عن دفع المبلغ المفروض عليه وحسب ، بل عمل على إثارة الإمبراطور بأن أرسل معونة ماليـة إلى شامبهاجى .

لم يكن من المنتظر اذن أن يعفو الإمبراطور عن هـذه الخيـانة ، فأسرع بالاستيلاء على جولكندا ، وقبض على أبى الحسن ، وسجن فى قلعة دولت أباد .

بجابور :

ولم يكن موقف بيجابور يختلف كثيرا عن موقف جولكندا ، فإن سياسة الإمارتين فى الحقيقة حيال المغول كانت متشابهة ، فقـد طلب أورنجزيب من سكندر عادل شاه أمير بيجابور أن يتعاون معه للقضاء على نفوذ المراتها ؛ ومع هذا فقد تباطأت بيجابور فى تنفيذ هذه السياسة ، وكانت تعمل فى السر على التآمر مع شفاجى ضد الامبراطور ، ولهذا عزم أورنجزيب على أن يضع حدا لهذا العبث.

فنى سنة ١٦٥٨ صدرت الأوامر إلى الأمير أعظم بالمسير نحو بيجابور ، وتبعه بعد قليل الإمبراطو نفسه ومعه جيشه . ولم يستطـع أهالى بيجابور مقاومة هذا الجيش الضخم فاستسلموا فى سبتمبر سنة ١٦٨٦ . وقابل أورنجزيب الأمير سكندر مقابلة طيبة وسمح له بالإقامة فى دولت آباد ، ولـكنه استدعى بعد قليل إلى معسكر الإمبراطور . وهناك أقام إلى أن توفى فى سنة ١٧٠٠ .

أورنجزيب والانجليز :

فى سنة ١٦٨٦ أحرق الانجليز مدينة هوجلى Hugli وبذلك جلبوا لأنفسهم متاعب كثيرة ، فقد بدأ شايستاه خان يتخذ الإجراءات لمهاجمة هؤلاء الذين يعملون على تهديد الأمن والسلام، واضطر الإنجليز أمام هذا الضغط أن ينسحبوا من البنغال انسحابا كاملا فى فبراير ١٦٨٩ ، وإن كان أورنجزيب قد عفا عنهم فى السنة التالية وسمح لمعتمدهم (جوب شارنوك) Job Charnock أن يقيم فى المكان الذى أصبح فيما بعد النواة التى تكونت حولها مدينة كلكتا(سبتمبر ١٧٩٠) .

وشبيه بهذا ما حدث فى الشاطىء الغربى، فإن رئيس شركة الهند الشرقية بحماقته كان السبب فى حدوث نزاع بين الإنجليز والمغول ، وذلك أنه خرج من سورات واتجه إلى بومباى حيث استولى على السفن المغولية الراسية هناك . ولم يتوان القواد المغول لحظـــة فقبضوا على كل الإنجليز المقيمين فى سورات وأصدروا أوامرهم إلى واحد منهم بمهاجمة جزيرة بومباى من البحر ، واستطاع هذا القائد أن ينزل بقواته على أرض الجزيرة وأن يستولى على معظم أجزائها وأن يحاصر الإنجليز فى قلاعهم التى اعتصموا بها ، وأخيرا اضطر قائدهم المتهور سيرجوزيا تشيلد Sir Josia Child أن يستسلم استسلاما ذليـــلا مهينا . ومع هذا فان الإمبراطور أورنجزيب كان كريما كعادته ، فأصدر بعد قليل فرمانا بالعفو عن الإنجليز ، وصدرت أوامره بأن يدفعوا غرامة مالية ، ثم سمح لهم بأن يمارسوا تجارتهم فى أراضى الإمبراطورية المغولية .

أورنجزيب ، شخصيته وسياسته :

يقف أورنجزيب وحده من حيث أخلاقه الكريمة وتمسكه بالمثل العليا بين أباطرة المغول الذين حكموا الهند جميعا ، لايكاد يدانيه واحد منهم ، فقد كان

بهادر شاه

آخر أباطرة المغول
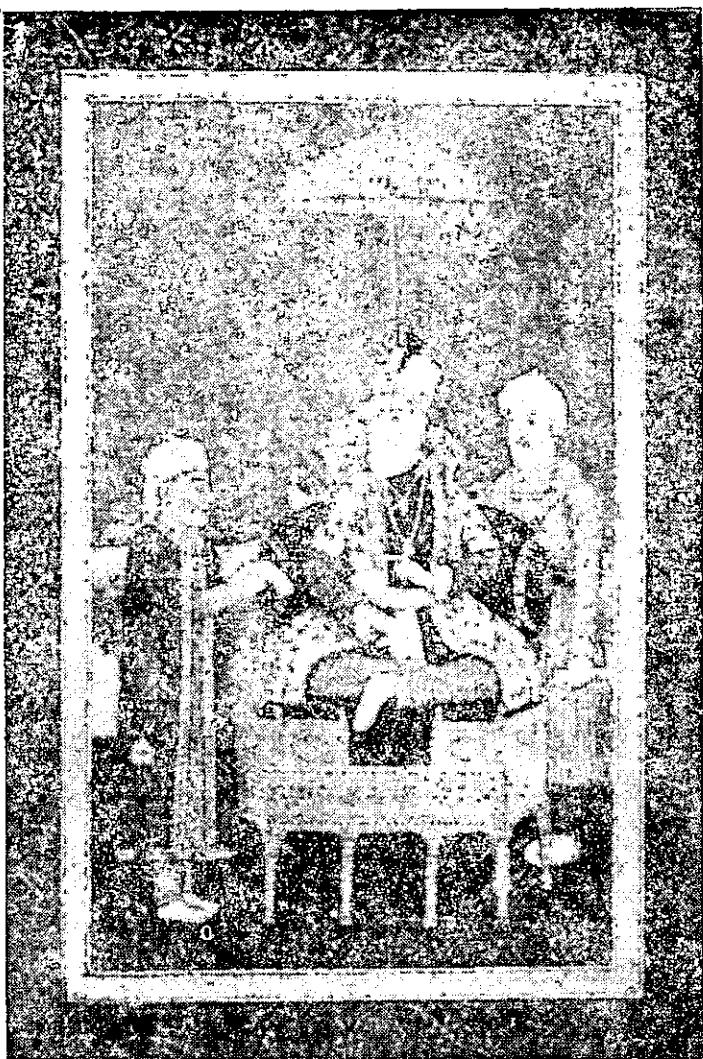
تقيا ورعا وسطبيئة تنغمس فى حياة الترف . ويروى عنه أنه ترك حصانه ـ أثناء المعركة ببدخشان ـ وذهب ليؤدى فريضة الجمعة ، وأعجب العدو بشجاعته هذه فأوقفوا القتال وانسحبوا .

وكان أورنجزيب إلى هذا ذكيا ، مخلصا فى عمله ، قوى الاحساس بواجبه ، نشطا غاية النشاط بحيث كان يشرف بنفسه على كل شؤون الحكم والإدارة فى دولته ، كما كان يكره الاستبداد ويحاول جهده أن يحقق العدالة لأصغر صغير من رعاياه .

ولم يشتهر أورنجزيب بتدينه وتقواه وورعه وشجاعته وبنشاطه فحسب ، بل عرف كذلك بأنه كان عالما متمكنا وكاتبا قديراً ، فكان على علم وثيق بالفقه والشريعة الإسلامية ، وكان يعجب بصفة خاصة بمؤلفات الإمام الغزالى .

ولم يكن إقبال أورنجزيب على العلوم الدينية يقل عن إقباله على العلوم الأدبية ، فكان على معرفة بلغات أربع هى : العربية ، والفارسية ، والتركية ، والهندية ، ولكنه كتب كثيرا من رسائله باللغة الفارسية ، وبعض الرسائل لايزال موجودا وتعتبر نموذجا للأسلوب السلس الجميل الخالى من اللغو ؛ ولم يكن الرحالة الفرنسى برنييه مخطئا حين وصفه بقوله: «لقد وهب الأمير أورنجزيب عبقرية نادرة تؤهله لأن يكون رجل دولة ممتازاً وملكا عظيما» . وقد انتقد بعض الكتاب غير المسلمين أورنجزيب لما ادعوه عليه من تعصب ضد الهندوك ، ولكن الحقائق لاتؤيد هذا النقد ، وقد أوضح هو سياسته فى كثير من رسائله حيث أعلن رفضه لاضطهاد موظفيه بسبب دينهم ، ولم يكن لأحد من هؤلاء الموظفين أن يخشى بأسه مادام على ولائه للدولة . حقيقة لقد أمر أورنجزيب بهدم بعض المعابد الهندوكية ، ولكن الدافع الحقيقى لهذا الأمر يتضح فى الفرمان الذى أصدره بهذه المناسبة ، ففيه ينص على هدم المعابد التى بنيت بغير إذن رسمى ، ومع هذا فقد نص فيه أيضا على تقديم منح من الأرض لعدد من الهياكل وأماكن العبادة الهندوكية .

ومن الحقيقى أيضا أن أورنجزيب بذل جهودا كبيرة لإصلاح أحوال المسلمين وصبغ الدولة بصبغة إسلامية ، ولكن هذه السياسة كانت ضرورية لإنقاذ الدولة مما أصابها من عوامل الضعف والاضطراب ، فإنه من البديهى فى علم السياسة أن الدولة تستطيع أن تصارع للبقاء إذا نالت التأييد الفعال من الشعب ، أو من جزء من الشعب على أقل تقدير . لقــد قامت سياسة أكبر على عدم الانحياز للمسلمين ، ولكن مع هذا لم يفلح تماما فى كسب تأييد الهندوك ، حقيقة لقد وضع قليل من أمراء الهند خدماتهم تحت أمر الدولة ، ولكن تيارا من مقاومة الهنود كان سائدا طول الوقت .

وكان يسود بين المسلمين منذ نادى أكبر بدينه الإلهى ـ تهاون شديد فى أمور العقيدة إلى أن قام السيد أحمد الجددى بحركته الاصلاحية . وكان من الواجب العمل على تنشيط المسلمين وأن يعاد إليهم الشعور بالمسئولية ، ولم يكن هذا ممكناً بغير إعادة الاهتمام بالنظم الإسلامية ، ولهذا اضطر أورنجزيب أن يعيد فرض ضريبة الجزية على غير المسلمين ، أما مقاومته للسيخ والراجبوت فلم يكن الدافع لها دينياً بل سياسياً ، فكما أنه عنف فى معاملته للقبائل الإسلامية فى شمال غربى الهند ، فإنه لم يستطع كذلك أن يقف مكتوف الأيدى أمام عصيان رعاياه غير المسلمين أو الفوضى التى أشاعها المراتها فى إقليم الدكن .

لم يكن أورنجزيب إذن مسئولا عن ضعف الدولة وسقوطها ، فإن الإمبراطورية تبعاً لسياسة أكبر لم تعد تعنى أحداً غير الإمبراطور نفسه ، وكان من الطبيعى أن يتعرض بناء كهذا للسقوط عند ما تهب عليه أول عاصفة سياسية ، ولقد قدر لهذه العاصفة ان تهب فى عهد أورنجزيب ، وقد استطاع بنشاطه الجم وحيويته الدافقة ودفاعه القوى عن الإسلام أن يؤجل انهيار الدولة ، ولكن من

المؤسف أن نقول إن جهـــود أورنجزيب الضخمة قد أفسدت فى عهـود خلفـــائه .

كان أورنجزيب فى طبيعته أقرب ما يكون إلى الشهداء ، فقد ظل طول حياته يصارع من أجل تحقيق أهدافه ، واستعان بإرادته الحديدية على المقاومة ، فلم يدع المرض أو لكبر السن فرصة للتغلب عليه أو للحيلولة بينه وبين أداء رسالته ، ولم يلق السلاح إلا عندما أدرك أن رحلته الطويلة فى هـذه الحياة قد أوشكت على الانتهاء .

فهرس المراجع

ا ـ المراجع العربية

أحمد (حبيب)

= بين الهند والباكستان ، القاهرة ١٩٥٠ م .

بدايونى (عبد القادر)

= منتخب التواريخ ، كلكتا ١٨٦٨ م .

أمين (أحمد)

= زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ، القاهرة ١٩٤٨ م.

خان (صديق حسن)

= الحطة فى ذكر الصحابة الستة .

دهلوى (شاه ولى الله)

= التفهيمات الإلهية .

= حجة الله البالغة .

= رسالة فى تحقيق وحدة الوجود .

= عقد الجيد فى أحكام الاجتهاد والتقليد .

= أنفاس العارفين ، دلهى ١٣٣٥ ﻫ .

دهلوى (مولانا عبد الحق محدث)

= أخبار الأخيار ، دلهى ١٣٣٢ ﻫ ،

= طبقاتى أكبرى (وله ترجمة إنجليزية) ، كلكتا ١٩٣٦ م .

رضا (الشيخ رشيد) .

= تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده .

سرهندى (السيد أحمد المجددى) .

= آداب المريدين .

= رسالة تهليلية (طبعت ملحقة بمجموعة رسائله - المكتوبات - طبعة لكناو ، ١٩١٣ ؛ وقد ترجم هذه الرسالة فيما بعد إلى العربية شاه ولى الله دهلوى ، وأضاف إليها مقدمة تحدث فيها عن التيارات الدينية فى بلاط أكبر ، وعن نشاط السيد أحمد)

= المبدء والمعاد ، دلهى ١٣١١ هـ .

= مكتوبات أحمد سرهندى (بالفارسية ، نحو ٥٥٠ رسالة) طبعت أكثر من مرة فى الهند ، لكناو ١٩١٣ ؛ دلهى ١٢٨٨ و ١٢٩٠ هـ ؛ امرتسر ١٣٢١ - ١٣٢٤ هـ .

الشيال (جمال الدين)

= الحركات الإصلاحية ومراكز الثقافة فى الشرق الإسلامى :
الجزء الأول : الهند والجزيرة العربية ، القاهرة ١٩٥٧ م .
الجزء الثانى : مصر والشام ، القاهرة ١٩٥٨ م .

صبرى (مصطفى)

= مواقف العقل والعلم ، ٣ أجزاء ، القاهرة ١٩٥٠ م .

الصعيدى (عبد المتعال)

= المجددون فى الإسلام من القرن الأول إلى القرن الرابع عشر .

الكتانى (عبد الحى)
= فهرس الفهارس والأثبات ، ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات ، جزءان ، المطبعة الجديدة بفاس ١٣٤٦-١٣٤٧ هـ.

مؤنس (حسين)
= الشرق الإسلامى فى العصر الحديث ، القاهرة ١٩٣٨ .

ب ـ المراجع غير العربية

Ahmad (Burham)

- The Mudjaddid's Conception of Tawhid, Lahore 1940.

Ahmad (Zubaid)

- The contribution of India to Arabic Literature.

Amir Ali

- Spirit of Islam.

Arnold (Th.)

- The Preaching of Islam.

Badaoni (Abdul Qadir)

- Muntakhib-ut-Tawarikh (an English translation by: Ranking & Rowe), Calkatta 1868.

Bayler (Sir Edward Clive)

- The History of India as told by its own Historians. The Local Muhammadan Dynasties. Gujarat, London 1886.

Beveridge (Henry)

- Memoirs of Jahangir, translated into English by Alexander Rogers.

Blockmann (Henry)

- The Ain-i-Akbari of Abul Fazl Allami. Calcutta, 1873.

Briggs (John)

- History of the Rise of the Mahomedan Power in India till the year A. D. 1612. Translated from the Original Persian of Mahmoud Kasim Firishta. 4 vols. Calcutta 1910.

Brockelmann (Carl)

- Geschichte der Arabichen Litteratur. Leiden, 1898-1939.

Brown (Ed. G.)

- A Literary History of Persia. 2 vols. London 1906-9.

Chand (Tara)

- Influence of Islam on Indian Culture. Allahabad, 1954.

Cunningham (Joseph Davy)

- History of the Sikhs. Edited by Garrett Oxford, 1918.

Danvers (Frederick Charles)

- The Portuguese in India, being a History of the Rise and Decline of their Eastern Empire. 2 vols. London 1894.

D'Ohsson (De M.)

- Histoire des Mongols. 4 vols. Paris, 1834.

Dorn (Benhard)

- History of the Afghans. Translation of the Makhzan-i-Afghan. London, 1820.

Edward (and Garrett)

- Mughal Rule in India.

Edward (S. M.)

- Babur : Diarist and Despot. Londan (No. Date).

Elliot (Henry)

- The History of India as told by its own Historians. The Muhammadan Period. Edited by John Dawson. 8 vols. London, 867.

Eriskine (William)

- A History of India under the two first Sovereigns of the House of Taimur, Baber and Humayun. 2 vols. London, 1854.

Gibb (H. A. R.)

- Mohammadanism, London 1950.
- Modern Trends in Islam.
- Ibn Batuta's Travels in Asia and Africa (1325 - 1334). Translated and selected, Broadway Traveller, London 1929.

Guillaume (Alfred)

- Islam. Edinburgh, 1954.

Habib (Muhamad)

- Mahmud of Ghaznin. Bombay 1927

Haig (Sir Wolseley)

- Cambridge History of India, III, Cambridge, 1928.

Hidayat (Husain)

- Shah Wali Ullah (art. in : Journal of the Asiatic Society of Bengal, 1912)

Howorth (Henry)

- History of the Mongols. 4 Parts. London, 1840

Hunter (W. W.)

- The Indian Musalmans. London 1871.

Husain (Agha Mahdi)

- Le Gouvernment du Sultanat de Delhi (Etude Critique d'Ibn Battuta et des Historiens du 14e Siècle).

Husain (Waheed)

- Administration of Justice during Muslim Rule in India. Calcutta University, 1934,

Ibn Batuta

- Voyages d'Ibn Batuta. Texte Arabe. Accompagnée

d'une traduction par C. Defremery et B.R. Sanguinetti:
4 tomes. Paris, 1914.

'Inayatulla (Sh.)

- Ahmad Sirhindi (Art. in : Ency. Islam, new edition).

Jadunath (Sarkar)

- The Fall of the Mughal Empire.
- History of Aurangzeb (5. Vols.).
- Mughal Administration.
- History of Aurangzeb, based on Original Sources. 4 vols. Calcutta, 1920.
- Studies in Mughal India. Calcutta, 1919.

Jaffar (S. M.)

- The Mughal Empire from Babar to Aurangzeb. Lahor, 1936.
- Medieval India.
- Education in Muslim India.
- Some Cultural Aspects of Muslim Rule in India.

Jain (A. C.)

- A visit to the City of Taj. Agra, Delhi, 1950.

Keen

- The Fall of the Mogul Empire.

Lane-Poole (Stanely)

- Aurangzeb (Rulers of India).
- Medieval India Under Mohammadan Rule. London 1925.

Law (Narendra Nath)

- Promation of Learning in India under Muhammadan Rule, London 1910.

Major (R. H.)

- India in the 15th Century. London, 1857.

Malleson (Col.)

- Akbar.

Moreland (W. H.)

- India at the Death of Akbar. An Economic Study. London, 1920,

Mazim (Muhammad)

- The Life and Time of Sultan Mahmud of Ghazna. Cambridge University Press, 1931.

Pakistan History Board

- A Short History of Hind-Pakistan. Karachi, 1955.

Prasad (Ishwari)

- History of Medieval India. Allahabad, 1952.

Ranking George & Lowe, W. H.

- Al Badaoni : A translation of Badaoni's Muntakhab-ut-Tawarikh. 3 vols. Calcutta 1898.

Ronade

- Rise of Maratha Power.

Ross (Denison)

- An Arabic History of Gujarat. Translation of Haji-ud-Debir's « Zafar-ul-Walih bi Muzaffar Alih ». 2 vols. London, 1921.

- Jahanger and the Jesuits (edited by Sir E. Donison Ross and Eileen Power), London, 1930.

Sindhi ('Obaid - Ullah)

- Shah Walli - Ullah and his Political Movement

(Sindh-Sagar Academy. Lahore 1944).

Smith (Vincent A.)

- Oxford History of India. Oxford, 1920.
- Akbar, the great Moghul.

Smith (Wilfred Cantwell)

- Modern Islam in India. London 1946.

Titus (M)

- Indian Islam. London 1930.

Whiteway (R. S.)

- The Rise of Portuguese Power in India (1497–1550). Westminster, 1899.

Yule (Colonel Henry)

- Travels of Marco Polo. 2 vols.

الفهــارس

أولا : فهرس الموضوعات

الصفحات

الصفحات

الصفحات

الصفحات

الصفحات

ثانيا : فهـــرس الصور

الصفحات

ثالثا : فهـــرس الخرائط

رابعا : فهرس المراجع

رقم الايداع	١٨٢٦٤ / ٢٠٠٠
الترقيم الدولي	977-341-011-0